حياة ما بعد الموت

العلاّمة السيّد محمد حسين الطباطبائي



دار التعارف للمطبوعات

حياة ما بعد الموت



دار التعارف للمطبوعات

لبنان ـ بيروت ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين

ص.ب: ٦٤٣ ـ ١١ ـ ٨٦٠١ ـ ١١

هاتف: ٢٧١٩٠٧ ـ ٢٧١٩٠٨ ١ ٠٠٩٦١ ـ فاكس: ٢٧١٩٠٧ ١ ٠٠٩٦١

موبايل: ٨٢٣٦٢٠ ٣ ٠٠٩٦١

حياة ما بعد الموت

تأليف
الفيلسوف الرباني آية الله السيد
محمد حسين الطباطبائي

ترجمة
سالم مشكور

دار التعارف للمطبوعات

فهرس الموضوعات

الفصل الأول:

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

الفصل السابع:

الفصل الثامن:

الفصل التاسع:

مقدمة المترجم

يشغل الحديث عن الموت، والدعوة إلى استذكاره، حيّزاً كبيراً في أحاديث النبي (ص)، والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وعلماء الأخلاق، باعتبار الموت، يمثل حداً فاصلاً بين عالمين: الدنيا التي يحيا فيها الإنسان، والآخرة التي يحاسب فيها على ما عمله في حياته، ليؤول بعدها إلى المصير الخالد، أما في جنات النعيم أو في سعير جهنم.

وعندما يتذكر الإنسان الموت، فإنه يستحضر المراحل التي ستبدأ بعده، بدءاً بالقبر ومروراً بالبرزخ، وانتهاء بيوم الحساب وما يترتب عليه من تحديد المصير النهائي للإنسان. وفي كل مرحلة من هذه المراحل، يتحدد وضع الإنسان فيه، شقاءً أو سعادة، عذاباً أو تكريماً، على أساس ما قدّم في حياته.

من هنا فإن في ذكر الموت، تحذير للإنسان، من عواقب السيء من أعماله، فيتجنبه، والصالح منها، فيزيد منه ما استطاع. لا أن يتحول ذكر الموت إلى عامل سلبي، يغرس الحزن والهلع واليأس في النفوس، فتشل حركة الإنسان ويتراجع نشاطه وتبرد همته.

الكتاب الذي بين يديك - عزيزي القارىء - يضم بين دفتيه بحثاً (أو رسالة كما سميها المؤلف) يخوض في تفاصيل أحوال مرحلة ما بعد الموت، من القبر وحتى قيام الساعة، وحال الإنسان في كل منها، وقد اعتمد المؤلف المفسر الكبير والفيلسوف الرباني السيد الطباطبائي (رض) على الآيات القرآنية في وصفه لتلك «الحياة»، وما يجري فيها، متبعاً أسلوبه الشهير القائم على تفسير القرآن بالقرآن والبرهان على آية، بآية أخرى. وبدورنا حاولنا - خلال الترجمة - تبسيط ما أمكن من العبارات معقدة الأسلوب، مع المحافظة على المعنى، لتكون في متناول إدراك عامة القراء. سائلين المولى أن يجعلنا جميعاً من أهل السعادة، بعد الموت، إنه سميع مجيب.

سالم مشكور
شوال ١٤١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أوليائه المقربين محمد وآله الطاهرين.

هذا الكتاب يتضمن رسالة كتبناها في موضوع المعاد، نخوض فيها - بعون من الله سبحانه وتعالى، بحال الإنسان في مرحلة ما بعد الحياة الدنيا، استناداً إلى ما يوصلنا إليه البرهان، وما يقدمه لنا القرآن والسنة في هذا المجال. وقد آثرنا الاختصار والاقتصار على المفاهيم العامة. ذلك أن المنهج الذي نتبعهُ، والقائم على تفسير الآية بآية أخرى، والرواية برواية أخرى، منهج عميق ليس من السهل بلوغ مداركه. وطبيعي أن الاكتفاء في هذا الموضوع، بذكر نموذج واحد من بين النظائر المتعددة، لن يساعدنا على بلوغ الفائدة الكاملة. وسيقف القارىء على صحة قولنا خلال قراءته لهذا البحث.

ولا بد من القول هنا أن مفسري الأخبار والروايات لم يعتمدوا الأسلوب السالف الذكر، لاستنباط معاني الآيات والروايات ومكنوناتها. وبالنتيجة، لم يتركوا لنا حتى القليل من الآثار في هذا المجال.

من هنا، فإن من يريد اعتماد هذا الأسلوب سيواجه صعوبة بالغة، وسيكون كالذي يدخل ساحة القتال دون سلاح، والله المستعان.

محمد حسين الطباطبائي

الفصـل الأول :

الموت والأجَل

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** ﴾[1]. وهذه الآية توضح أن لكل موجود، من السماء وحتى الأرض وما يوجد بينهما، أجلٌ وصفه البارىء عز وجل بأنه «مسمى» أي محدد ومقدّر بحيث لا يتعداه أي موجود، كما يتضح من الآية الكريمة ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾[2] وكذلك الآية ﴿ **ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾[3] والكثير من الآيات الأخرى المنطوية على نفس المعنى.

إن «أجل» الشيء، هو الزمان الذي ينتهي عنده، ولهذا يستخدم هذا المصطلح في موضوع الدَّيْن، الذي يحدد له «أجل مسمى». وفي الآية ﴿ **قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون** ﴾[4] ورد الـ «يوم» للدلالة على «الأجل».

---

(١) الروم: ٨.

(٢) الأعراف: ٣٤.

(٣) الحجر: ٥.

(٤) سبأ: ٣٠.

وفي الآية الكريمة ﴿ **الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده** ﴾[1] يخبرنا الباري عز وجل أن «الأجل المسمى» هو عنده. ثم نقرأ في آية كريمة أخرى ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾[2]. أي أن الذي عنده، خالد وثابت لا يتأثر بعوامل الدهر وظروف الزمان.

يقول الله تعالى ﴿ **إنما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتيها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس** ﴾[3]فهو يخبرنا أنه حدد أجلاً لزينة الأرض، وأن هذا الأجل، إنما هو بأمره، وكذا الحال بالنسبة للحياة الدنيا، أي أن الأجل الدنيوي إنما هو محدد بأمر الله.

إذن، فإن الأجل نوعان، أو على الأقل نوع واحد له وجهان: الأجل الزماني الدنيوي، والأمر الإلهي، وهما ما تشير إليهما الآية ﴿ **ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده** ﴾[4]! من هنا يمكن إدراك حقيقة أن «الأجل المسمى» هو من عند الله وهو أمرٌ إلهي، و«عند الله» يعني أنه ثابت ومصون من كل تأثير. وهذا ما يتضح في الآية الشريفة ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت** ﴾[5]، ولهذا فإن الباري عز وجل عبَّر عن «الأجل» في العديد من الآيات بعبارات «العودة إلى الله» و«لقاء الله».

الموت.. انتقال من عالم إلى آخر

العودة.. هي الخروج من النشأة الأولى (الدنيا)، ودخول النشأة الأخرى (الآخرة)، إنه الموت الذي يصفهُ الباري عز وجل، وليس الذي يعني التوقف

(١) الأنعام: ٢.
(٢) النحل: ٩٦.
(٣) يونس: ٢٤.
(٤) الأنعام: ٢.
(٥) العنكبوت: ٥.

عن الحركة والإحساس، وزوال الحياة الظاهرية. يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾[1] إذ وصف الموت بـ«الحق» في إشارة إلى الأجل الثابت الذي هو حق إلهي. وكذلك يقول ﴿ **كلا إذا بلغت التراقي...** ﴾ إلى أن يقول ﴿ **والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق** ﴾[2]، وهي إشارة صريحة إلى أن الموت هو يوم العودة إلى الله سبحانه وتعالى.

وينقل الشيخ الصدوق وآخرون رواية عن النبي (ص) يؤكد فيها أن الإنسان خلق للبقاء وليس للفناء، وإنما الموت، انتقال من عالم إلى آخر.

كما يروى عن الإمام الصادق(ع) وصفه للإنسان بأنه خلق بشأنين: الدنيا والآخرة، فجعل الله سبحانه وتعالى، حياة الإنسان على الأرض، بعدما أنزل هذه الحياة من السماء إلى الأرض، وعندما يوجد الباري عز وجل الفراق بين هذين الشأنين، يحدث الموت، وعند ذاك يعود شأن الآخرة إلى السماء. إذن فالحياة هي على الأرض، والموت في السماء، ذلك أن الموت يعني الفصل بين الروح والجسد. فتعود الروح إلى القدس الأول، ويبقى الجسد على الأرض لكونه من شأن الدنيا.

ينقل عن الإمام الحسن العسكري قوله عن الإمام علي الهادي عليهما السلام أنه دخل على أحد أصحابه وكان مريضاً يبكي خوفاً من الموت. فقال له الإمام: أنت تخاف الموت لأنك لا تعرفه. أخبرني ـ لو كان بدنك مليئاً بالجراح والجرب ـ وتعلم أن علاجه يكمن في استحمامك في حمام معين يريحك من كل ما يؤلمك، أكنت تكره دخول هذا الحمّام، وتفضل البقاء على معاناتك؟ فقال الرجل: كلا، بل أفضل الحمّام يا ابن رسول الله، فرد عليه الإمام: إذن،

---

(١) ق: ١٩.

(٢) القيامة: ٣٠.

إعلمْ أن الموتَ هو ذلك الحمام، وهو آخر فرصة لتطهر نفسك من ذنوبها وذاتك مما علق بها من سيئات، فإن وردت على الموت، ستنجو من كل همّ وغمّ، وستبلغ الفرح والبهجة. هنا أحس المريض بالسكون والاطمئنان واستسلم للموت، وأغمض عينيه وودع الدنيا.

وفي رواية أخرى، ينقل الإمام الجواد عليه السلام عن آبائه الطاهرين عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أن الأمر لما اشتد على الإمام الحسين بن علي (ع) في كربلاء. نظر إليه أصحابه، فوجدوه في وضع يختلف تماماً عما هم فيه من قلق واضطراب. فكلما كان الأمر يشتد عليهم، كانوا يصابون بالذعر، وترتجف أرجلهم، أما الحسين عليه السلام، وبعض المقربين والقريبين منه، فكانوا على العكس من ذلك... تعلو وجوههم علامات السكون والاطمئنان، وكان الأصحاب يقولون: إنه لا يخاف أبداً، فيجيبهم الإمام الحسين (ع): أيها العظام، عليكم بالصبر، فما الموت إلا جسر ينقلكم من عالم الشدائد والمصاعب إلى الجنة الواسعة والنعم الدائمة.. إنه ينقلكم من السجن إلى قصر كبير، واعلموا أن الموت لأعدائكم ليس إلاّ جسراً ينقلهم من القصر إلى السجن والعذاب.

ويورد الإمام الحسين لأصحابه ما نقله له أبوه الإمام علي (ع)عن رسول الله من ان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، والموت، جسر يوصل المؤمنين الى الجنة والكافرين الى جهنم.

وينقل الإمام الباقر(ع) أن الإمام السجاد (ع) سئل عن الموت فقال بأنه للمؤمن كخلع ملابس قذرة وفك قيود وسلاسل ثقيلة، والاستعاضة عنها بملابس نظيفة معطرة ومراكب مريحة ومساكن واسعة. وأنه بالنسبة للكافر، كخلع الملابس الفاخرة وترك المسكن النظيف الواسع، إلى مسكن بعيد قذر حيث العذاب واللباس القذر.

وعندما يُسأل الإمام الباقر نفسه عن الموت، يجيب بأنه النوم الذي يأتي الإنسان كل ليلة، إلا أنه أطول منه مدة، بحيث لا يفيق منه الإنسان إلاّ يوم القيامة ويشبّه الإمام، الموت، بما يراه الإنسان في منامه من أحلام جميلة أو كوابيس مرعبة، ثم يدعو الناس إلى التهيؤ له.

الروح تنتقل مع الموت

إن تشبيه الإمام الباقر (ع) للموت، بالنوم، مستوحى من الآية الكريمة ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى** ﴾. إذ نلاحظ أن الله عز وجل وصف الحالتين بـ «الوفاة»، ثم استخدم «الإمساك» للتعبير عن الأولى، أي التي تعود فيها الروح إلى ربها، ونلاحظ أنه لم يقل «يقبض» بدلاً عن «يمسك».

أما قول الأئمة الأطهار أن الروح، تفارق الجسد عند الموت، فهو مستوحى من الآية الكريمة ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾[1]، ذلك أن الباري عز وجل نسب «التوفي» إلى «الأنفس» باعتبار ذلك، استيفاء كاملاً للحق المطلوب، وكذلك في الآية ﴿ **هو الذي يتوفاكم** ﴾[2] نسب «التوفّي» لـ «كم»، وهي الضمير المعبر عن الأنفس والتي يذكرها الإنسان بكلمات «أنا» و «نحن».

إذن فالذي ينتقل من الإنسان إلى النشأة الأخرى ـ هو الروح ـ والآية الكريمة ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾[3] تشير إلى هذا الأمر بوضوح، فالكدح هو السعي باتجاه شيء، والإنسان هو الساعي إلى الله، وهو الذي يسير إليه منذ بدء خلقه، ولهذا فإن آيات عدة تتحدث عن إقامة الإنسان في الدنيا بكلمات «لبث» أو «مكث» كما في الآية ﴿ **قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين** ﴾[4].

(١) الزمر: ٤٢.

(٢) الأنعام: ٦٠.

(٣) الانشقاق: ٦.

(٤) المؤمنون: ١١٢.

من الذي يتوفى الأنفس؟

يقول الباري عز وجل ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ وهي إشارة صريحة إلى أن «التوفي» منسوب إليه. وفي آية أخرى ﴿ **قل يتوفكم ملك الموت الذي وكل بكم** ﴾[1] نجد أن «التوفي» منسوب إلى ملك الموت. وفي آية ثالثة ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون** ﴾[2] نجد أن «التوفي» نسب إلى «الملائكة المرسلين». طبيعي أن المرجع والمصدر لكل هؤلاء واحد، ذلك أن جميع ذلك يتم بإرادة الله وأمره، لكن التنفيذ يتم على مستويات متعددة، طبقاً لمستوى الفئة التي تجرى بحقها عملية «الوفاة». وهناك العديد من الروايات والأخبار التي تؤيد ذلك، فقد نقل عن الإمام الصادق أن ملك الموت سُئل كيف يستطيع قبض أرواح أناس متوزعين على مشارق الأرض ومغاربها فأجاب بأنه يستدعى هذه الأرواح، وهي تستجيب له. ثم قال أن الدنيا بين يديه، كما الإناء بيد الإنسان يأكل من أي جانب منه يشاء، وأن الدنيا بين يديه (أي ملك الموت) كما الدرهم بيد الإنسان يديره كيفما يشاء.

وفي رواية أخرى أن جماعة من المؤمنين سألوا الإمام الصادق (ع) عن الآيات التالية:

﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾[3]

و ﴿ **قل يتوفكم ملك الموت الذي وكل بكم** ﴾[4]

و ﴿ **الذين تتوفيهم الملائكة طيبين** ﴾[5]

و ﴿ **توفته رسلنا** ﴾[6]

و ﴿ **لو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة** ﴾[7].

---

(١) السجدة: ١١.

(٢) الأنعام: ٦١.

(٣) الزمر. ٤٢.

(٤) السجدة ١١.

(٥) النحل ٣٢.

(٦) النحل ٢٨.

(٧) الأنعام ٦١.

(٨) الأنفال: ٥٠.

سألوه: كيف يمكن أن تكون هذه الآيات صحيحة، بينما نحن نعرف أنه قد يموت عدد كبير من الناس، من أنحاء العالم، وفي آن واحد، فأجاب، بأن الله تبارك وتعالى، جعل لملك الموت مساعدين من الملائكة، يتولون قبض الأرواح مثلما يتخذ قائد الحرس، أفراداً مساعدين له. فالملائكة المساعدون يقومون بتوفي الأشخاص المختلفين، ثم يقوم ملك الموت باستلامهم إلى جانب الذين يتوفاهم بنفسه، ثم يتوفاهم الله عز وجل جميعاً.

وقد وردت رواية أخرى عن أمير المؤمنين (ع) تتضمن نفس هذا المعنى، وورد في نهايتها تأكيد من الإمام بأنه لا يمكن لكل صاحب علم أن يعطى علمه ويشرحه لكل الناس، لأنهم مختلفين في استيعابهم لبعض العلوم وإدراكهم لها، لأن بعض هذه العلوم - والحديث للإمام علي - لا يقوى على تحملها إلا من أوتي عوناً إلهياً خاصاً لإدراكها وفهمها. ثم يقدم الإمام علي (ع) نصيحته فيقول بأنه يكفي للإنسان أن يعرف أن الله هو المحيي والمميت، وأنه يتوفى الأنفس، على يد من يريد، سواء كانوا ملائكة أو غير الملائكة.

وللوهلة الأولى يفهم السامع من عبارة «غير الملائكة» الواردة في كلام الإمام (ع) أن الله سبحانه وتعالى يمكن أن يتوفى بعض الأنفس أحياناً على يد غير الملائكة، وهذا يحمل علامات استفهام واستغراب.

فقد يكون المقصود بـ «غير الملائكة» هم بعض الأولياء المقربين الذين يتمتعون بمرتبة أعلى من الملائكة. وقد يكون المقصود بذلك، أولئك الذين يتوفاهم الله مباشرة دون وساطة الملائكة، هذا مع أن خلفية هذين الاحتمالين واحدة.

لقد ورد في «الكافي» رواية عن الإمام الباقر (ع) يقول فيها أن الإمام علي بن الحسين (ع) كان يقول دائماً أن كلام الباري عز وجل ﴿ **أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾[1] يقصد به موت العلماء. وقال بعض العلماء أن «أطراف» التي هي جمع «طرف»، يقصد بها العلماء والأشراف.

---

(١) الرعد: ٤١.

وعموماً، فكما أنّ لـ «الأنفس» مراتب ودرجات حقيقية بلحاظ قربها من الباري عز وجل، فإن الوفاة تتناسب ودرجة كل نفس، فبعضها يتوفاها الله تعالى بنفسه، ولذا فإن هذه النفس لا تدرك غير الله، وهناك أنفس يتوفاها ملك الموت، وهذه لا تدرك الملائكة الذين هم دون ملك الموت، أما القسم الثالث فيتوفاه الملائكة المساعدون لملك الموت.

وبغض النظر عمّن يَتوفى الأنفس، فإن المهم أن الذي «يُتوفىٰ» هو «النفس» وليس البدن، فالله أقرب للنفس، من النفس ذاتها، والملائكة يأتمرون بأمره، وينفذون ما يريد. وكذلك النفس، فهي من عالم الأمر، وليس في عالم الأمر، حجاب زماني أو مكاني. إذن فالتوفّي يتم من داخل النفس وليس من خارجها أو من البدن، فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿ **إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قرب** ﴾[1] وكذلك ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾[2].

الموت يكشف الحقيقة للإنسان

قلنا أن النفس، لا تفنىٰ بالتوفّي، وبما أنها عاشت الدنيا واستقرت فيها لفترة، ومرّت بحالة الغرور الدنيوي وتعودت عليه، فإن «الوفاة» ستكشف للنفس، بطلان كل ما كان في الدنيا، من تصورات وأوهام، وبانكشاف الأسباب الظاهرية للأمور، ستتحول كل التطلعات والطموحات الدنيوية إلى سراب، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجُوا أنفسكم اليوم تجزون عَذاب الهُونِ بما كنتم تَقُولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون. ولقد جئتمونا فرادى كما**

(١) سبأ: ٥١.

(٢) الواقعة ٨٣، ٨٤، ٨٥.

خلقناكم أولَ مَرَّةٍ وتركتم ما خولْناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شُرَكَؤا لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[1]

إن الإنسان يتعامل مع نوعين من الأمور والموجودات في الدنيا، الأول: مباهج الحياة وأدواتها التي يتصور أنه يملكها، وأنها توصله إلى طموحاته وأهدافه، والثاني: الناس الذين يتصورهم شفعاءَ له، فيتصور أنه لا يستطيع بلوغ حاجاته ومرامه، بدون مساعدة هؤلاء، كالزوجة والأبناء والأقرباء والأصدقاء وكل الذين لهم قوة تأثير في مجرى الأمور. لكن الباري عز وجل يشير في الآية **﴿ ولقد جئتمونا فرادى... ﴾** بشكل إجمالي إلى بطلان النوعين، ففي **﴿ وتركتم ما خولناكم... ﴾** يشير إلى زوال النوع الأول وفي **﴿ وما نرى معكم شفعاءكم... ﴾** يشير إلى زوال النوع الثاني. أما **﴿ لقد تقطع بينكم... ﴾** فهي إشارة إلى سبب بطلان النوعين وزوالهما، و **﴿ ضل عنكم... ﴾** إشارة إلى نتيجة هذا البطلان.

المهم، فإن ما في الدنيا يبقى في الدنيا، أما الإنسان فيبدأ منذ وفاته، حياة جديدة، مجردة عما كان في الدنيا ـ ومن هنا وصف الموت بأنه «القيامة الصغرى» التي قال فيها أمير المؤمنين (ع) أن كل من يموت، تقوم قيامته.

التبشير بالسعادة أو الشقاء بعد الموت

عندما تغادر «النفس»، جسم الإنسان، تفقد صفة الاختيار والقدرة على فعل شيء أو تركه، وهنا يُرفع التكليف عن الإنسان ـ النفس ـ فالله تعالى يقول: **﴿ يوم يأتي بَعضُ آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾**[2].

---

(١) الأنعام: ٩٣، ٩٤.

(٢) الأنعام: ١٥٨.

وفي هـذه المرحلة، يقف الإنسـان أمام مفترق طريقين، طـريق السعـادة وطـريق الشقاء، وعنـدها يتحـدد الطريق الـذي سيسلكه، فـإما أن يتسلم بشـارة السعـادة، أو وعيد الشقـاء، يقول الله تعـالى: ﴿ **ولو تـرى إذ الظالمـون في غمرات الموت والملائكة بـاسطوا أيـديهم أخرجـوا أنفسكم اليوم تجـزون عذاب الهون** ﴾ و ﴿ **الـذين تتوفيهم الملائكة طيبين يقـولون سلام عليكم أدخلوا الجنـة بما كنتم تعملون** ﴾[1] وكـذلك ﴿ **إن الـذين قالـوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنـوا وأبشروا بـالجنة التي كنتم توعدون** ﴾[2].

إن عبـارة «كنتم تـوعـدون» تعني أن البشـارة تتحقق بعـد الـدنيـا، أي في الآخرة. وطبيعي أن التبشير بشيء يعني الإخبار عن أمر قبل أن يحدث، وهذا ما يصدق على التبشير بالجنة الذي يحدث قبل دخولها.

من جانب آخر، فإن التبشير، يعني الإخبـار عن أمر حتمي الـوقوع. وبمـا أن الإنسان يظل حر الاختيار حتى لحظة وفاتـه. ويظل أمـام احتمال سلوكـه أحد الطريقين السـالفي الـذكر، تبعـاً لعمله وسلوكه، فـإن البشارة بـالجنة لا يمكن أن تتحقق في الـدنيا، ومن مـلاحظة الآيـة الكريمـة ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خـوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقـون لهم البشرى في الحيـوة الدنيا وفي الآخرة** ﴾[3] نرى أن البـاري عز وجـل، يثبّت ولايته على هؤلاء، ثم يخبـرنا بـأنهم لا خوف عليهم ولا يحـزنون. والـولايـة هـذه تعني أن الله سبحانـه وتعالى هو الذي يتولى تدبير أمـور المؤمنين دون تدخـل منهم، وفي هـذه الحـالة فقط، تكون البشارة في الدنيا لهؤلاء، أمراً صحيحاً ومنطقياً مـادام الله تعالى هـو المتولى والمدبر لأمور المؤمنين ومن هنا نرى أن البـاري تعالى يغيّـر سياق الآيـة عندما يصف تقوى هؤلاء المؤمنين فيقول جل وعلا ﴿ **وكـانوا يتقـون** ﴾، بينما السياق الطبيعي هو ﴿ **آمنوا واتقوا** ﴾، وهذا التغيير في السياق، إشارة واضحة

---

(١) النحل: ٣٢.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) يونس: ٦٢، ٦٣، ٦٤.

إلى أن إيمان هؤلاء المؤمنين بعد إيمانهم الأول، إنما جاء بفعل التقوى، وهو تعبير عن نقاء الإيمان من كل شوائب الشرك المعنوي، الناتجة عن الاعتماد على غير الله.

ونفس هذا المعنى نجده في الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم** ﴾[1] وهذا ما منَّ به الخالق عز وجل على المؤمنين. ووصفه بـ «النعمة» ثم يقول سبحانه وتعالى ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾[2]، فالمؤمنون يرجعون أمرهم إلى الله بشكل كامل دون أن يتدخلوا فيه. بعد ذلك تقول الآية الكريمة ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ﴾[3]، إذ حالت هذه النعمة التي منحها الله للمؤمنين، دون إصابتهم بأي سوء، وصانتهم من كل خطر، وهذا ما لا يدرك إلا في ظل الولاية الإلهية للمؤمنين. الذين يتدبر كل أمورهم.

ويتكرر نفس المعنى في الآية الكريمة ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين. ويفعل الله ما يشاء. ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً** ﴾[4] إذ نلاحظ الإشارة إلى الولاية الإلهية والتثبيت الإلهي للمؤمنين بكلمة «النعمة».

وفي آية أخرى يخبر الباري بمآل المطيعين لأوامره، حيث يحشرهم مع الذين أنعمَ عليهم ﴿**ومن يطع الله والرسول، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** ﴾[5].

---

(١) الحديد: ٢٨.

(٢) آل عمران: ١٧٣.

(٣) آل عمران: ١٧٤.

(٤) إبراهيم: ٢٧، ٢٨.

(٥) النساء: ٦٩.

فالشخص المطيع لا يمتلك إرادة فعل شيء، خارج إرادة المطاع، وفي النتيجة، يقوم المطاع بالتحكم في إرادة وأفعال المطيع، وينوب عنه في كل ذلك، وعلى هذا يكون المطاع ولياً للمطيع. كما أن هذا المطيع الخاضع للإرادة الكاملة للمطاع، يكون ولياً لمن أطاعهُ وسلم أمره إليه، لأنه سيكون في النتيجة قد أطاع المطاع الأول. ولهذا نرى الباري عز وجل جعل بعض أوليائه، أولياء لآخرين: ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾[1] وهذه الآية نزلت في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. وبالتأكيد ليس المقصود بالولاية هنا، الولاء القلبي والعاطفي، بسبب وجود كلمة «إنما»، وكذلك وجود عبارة «وليكم الله...» فالآية إذن تقوم بالتبيين خلافاً للآيات ﴿ **ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾[2]، و﴿ **المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾[3]. ومن هذه الآيات، ندرك لماذا يلحق الله المطيعين، بأوليائه، فهو وليّ كل هؤلاء، وبعض أوليائه المقربين أولياء آخرين أقل مرتبة، وليس على أحد من هؤلاء، خوف ولا هم يحزنون، بل أن الجميع يدخلون الجنة ويسعدون بصحبة الصالحين.

وهناك الكثير من الأخبار والروايات التي تؤكد هذا المعنى فقد ورد عن سدير الصيرفي. أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام: جعلت فداك يا ابن رسول الله (ص)، هل يكره المؤمن أن تقبض روحه؟ فيجيبه الإمام عليه السلام بالنفي، ويقول له أن ملك الموت يأتي إلى الإنسان ليقبض روحه، فيبدي هذا الإنسان امتعاضاً في البداية، ثم يطمئنه ملك الموت ويقسم له بالله الذي بعث محمداً (ص) بالرسالة، أنه أرحمُ به من أبيه، ثم يطلب منه أن يفتح عينيه وينظر، فيفعل الرجل، فإذا به يرى أمامه الرسول وأمير المؤمنين والحسن والحسين وأبناؤهم المعصومين، فيعرّفهم ملك الموت للإنسان ويخبره بأنه

---

(١) المائدة: ٥٥.

(٢) المائدة: ٥٦.

(٣) التوبة: ٧١.

سيكون جليسهم ثم يسمع الرجل منادياً من جانب الحق أن يا أيتها النفس المطمئنة بمحمد وأهل بيته، ارجعي إلى ربك راضية مشمولة بولاية الأئمة مسرورة بها، ومرضية من قبل الباري عز وجل، فادخلي في زمرة عبادي الصالحين وادخلي جنتي التي أعددتُها.

هنا لن يبقى لهذا الإنسان المؤمن ما يتعلق به، ويصبح همه الوحيد، أن يتعجل الموت.

وينقل عبد الرحيم الأقصر عن الإمام الباقر أن الروح عندما تصل إلى حلقوم الإنسان حين الوفاة، ينزل عليه ملك الموت ويسأله عن رغباته ويضمن له تحقيق ما يريد، وإبعاد ما يكره، ثم يفتح له باباً على منزله في الجنة، ويطلب منه أن ينظر إلى داخله، ليرى فيه رسول الله (ص) والحسن (ع) والحسين (ع) بانتظاره. وهذه الروايات هي تجسيد لقول الباري عز وجل ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحيوة الدنيا وفي الآخرة** ﴾[1].

في الحوار الذي جرى بين حارث الهمداني وأمير المؤمنين (ع) والذي ينقله أصبغ بن نباتة، جاء أن أمير المؤمنين بشّر حارث بأنه سيرى الإمام، عند الموت، على الحوض وفي المقاسمة، فيسأله حارث عن المقاسمة، ويجيبه الإمام بأنه يتقاسم مع نار جهنم الوافدين، فيقول لها، هذا حارث من أصحابي فاتركيه، وذلك من أعدائي فالتهميه.

وهذا الحديث من الأحاديث المشهورة، رواه العديد من الرواة الثقاة، وأيّده عدد من الأئمة.

وفي حديث عن أمير المؤمنين (ع) يقول فيه أن أحداً من محبيه لا يموت إلا ويراه الإمام في المكان الذي يحب، وأن أحداً من أعدائه لا يموت إلا ويراه الإمام في المكان الذي يكرهه هذا الإنسان.

---

(١) يونس: ٦٢، ٦٣.

كما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله أن الإنسان عندما تحضره الوفاة، يوكل إبليس عدداً من شياطينه المساعدين له، لزعزعة إيمان ذلك الإنسان ومحاولة دفعه نحو الكفر، لكن هؤلاء لا يتمكّنون من المؤمن الحقيقي، ومن هنا يقوم الناس بتلقين المحتضر شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، حتى يغادر الدنيا.

ويمكن إدراك مضمون الرواية السالفة من خلال استعراض الآيات التالية:

﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين** ﴾ و﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين** ﴾[1] ويبدو من هذه الآية أن قولَيَ ﴿ **أكفر** ﴾ و﴿ **إني بريء منك** ﴾ قد حدثا في زمان واحد، وهما من نوع واحد، وبما أن الآية تتحدث عن خطاب فلا يمكن أن يكون كلا القولين، لسان حال الشيطان أبداً.

وينقل العياشي في تفسير، رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، يقول فيها أن الشيطان يحيط بأصحابنا حين الوفاة، من اليمين والشمال، ليحرفهم عن إيمانهم ونهجهم لكن الله يمنعه من ذلك، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة** ﴾[1]. وهناك الكثير من الروايات المنقولة عن الأئمة في هذا المجال.

ما تقدم من مفاهيم، يمكن استنباطها من القرآن والسنة ـ وسنتحدث في فصل لاحق ـ عن البراهين التي تثبت تجرّد النفس، وعدم فنائها بالموت، وانفصالها عن الجسد.

---

(١) الحشر: ١٦.

(١) الحشر: ١٦.

الفصل الثاني:

البرزخ

هناك عَالَمان يقعان بين عالم الجسم والجسمانيات، وعالم أسماء الله، وهما عالم العقل وعالم المثال. وكل موجود، لا بد وأن يعود في النهاية إلى نقطة بدايته. وفي بحث لنا، أثبتنا أن لجميع هذه العوالم؛ ابتداء من عالم الجسمانيات وحتى عالم أسماء الله الحسنى (أساس العالم كله)، مراتب متباينة، على أساس نقص أو كمال كل منها، لكنها جميعاً، تملك وجوداً متساوياً في النفس. ومعنى ذلك أن صاحب المرتبة العليا ينزل إلى المرتبة الواطئة، والوطئة تكون كالمرآة، تعكس ما يسقط عليها من أضواء وألوان، وفي النتيجة فإن ما يظهر من عالي المرتبة، هو ذلك المقدار الذي تتمكن هذه المرآة، من عكسه، وهكذا فإن طبيعة وكيفية العالي، تظل مرهونة بنقص المرآة أو كمالها.

كما أن من الأمور التي أثبتناها في بحوث أخرى، هناك عالم، كالبرزخ، يقع بين العقل المجرّد، والمجردات المادية، وبناء على هذا فإنه عالم موجود، لكنه ليس مادة، رغم أنه يحمل بعض صفات المادة، مثل المقدار والشكل والعرض الفعلي.

بهذه المقدمة يمكن توضيح حال الإنسان حين انتقاله من الدنيا إلى الآخرة في مرحلة ما بعد الموت. وهنا أرى من الضرورة أن يمعن القراء وبدقة بجملة نقاط:

أولاً: تصور معنى المادة.

ثانياً: المادة جوهر، يمكن لها أن تكتسب صفات الأجسام.

ثالثاً: وجود المادة في الأجسام يفسر التغييرات والتحولات التي تطرأ على الجسم.

رابعاً: المادة ليست جسماً، وليست محسوسة.

ومن الخطأ الاعتقاد أن المادة هي ذات الجسم الذي نراه في الموجودات المختلفة. فهذا الاعتقاد الخاطىء وقع فيه بعض العلماء السطحيين، مما أوقعهم في عدم إدراك ما قدمه المتألهون وأهل البرهان، بالشكل الصحيح.

فعندما قلنا أن ليس للبرزخ مادة، أو أن لذّات البرزخ خيالية أو لذات عقلانية فقط، تصوروا أننا نعتبرها وهماً وسراباً ليس أكثر، وهذا الاعتقاد باطل في حد ذاته، وفي نفس الوقت، انحراف في إدراك المقصود.

وعلى أي حال، فإن البرزخ، هو كما رأيتموه، وكما يشير إليه الكتاب والسنة، ولأن الأخبار والروايات المتوفرة، تشتمل في الغالب على الآيات الواردة في هذا المجال، لذلك سنركز على استعراض الأخبار وشرحها وتأتي الآيات المطلوبة خلالها. فقد نقل عن أمير المؤمنين (ع) أنه يستند في رده على الذين ينكرون وجود الثواب والعقاب بعد الموت وقبل القيامة، إلى قول الباري عز وجل.

﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلاّ بإذنه فمنهم شقي وسعيد، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك. إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾[1] والمقصود بذلك، تلك السماوات والأرض الموجودة قبل القيامة، وحينما تقوم الساعة، تتبدل إلى سماوات وأرض أخرى. ومثل ذلك قول الباري عزّ وجل

---

(١) هود: ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨.

﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾[1] حيث المقصود بالبرزخ هو الثواب والعقاب في مرحلة ما بين الدنيا والآخرة، وكما نرى في الآية ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة** ﴾[2] فإن القيامة، مكان الخلود، وليس فيها ليل أو نهار، فهما من صفات الحياة في الدنيا.

وحول أهل الجنة يقول الله تعالى: ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً** ﴾[3] ومن الواضح أن «الصبح» و«العشية» يقصد به الصباح والمساء في الجنة قبل القيامة، ذلك أن الله تعالى يقول ﴿ **لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً** ﴾[4]. وفي هذا السياق تأتي الآية ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله** ﴾[5].

إن المقصود بالنار في ﴿ **النار يعرضون عليها** ﴾ هي نار الآخرة، لكن الشخص الذي يُعرض عليها هو في عالم البرزخ، كما تدل على ذلك نهاية الآية ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾[6]. وسيأتي هذا الموضوع في روايات نتطرق إليها فيما بعد. فمثلاً عندما يقال أن باباً تفتح في القبر، على نار جهنم، ليدخل منها بعض لهيب النار، فإن ذلك يعني أن نار البرزخ هي عَيِّنة من نار الآخرة، وعذابه نموذج من عذاب الآخرة. أما المقصود بالنار في ﴿ **فأما الذين شقوا ففي النار** ﴾ فهي نار البرزخ. من هنا تتضح صحة الجمع بين أمرين: دخول الدار، وعرض الإنسان على النار.

ولو دققنا في الآية ﴿ **إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون** ﴾[7] لرأينا أنها تحمل مدلولات الآية السابقة، فالسحب في الحميم، هو مقدمة للإدخال في النار، وهو ما يقع يوم القيامة.

---

(١) المؤمنون: ١٠٠.
(٢) المؤمن: ٤٦.
(٣) مريم: ٦٢.
(٤) الإنسان: ١٣.
(٥) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠.
(٦) المؤمن: ٤٦.
(٧) المؤمن: ٧١، ٧٢.

ينقل عدد من المفسرين، أمثال العياشي والقمي والكليني في «الكافي» والمفيد في «الأمالي» عن أمير المؤمنين (ع) قوله أن الإنسان عندما يصبح في آخر يوم من حياته وأول يوم من آخرته، تتجسم أمامه أعماله وأبناؤه وأمواله، فيخاطب ماله ويقول له بأنه جمعه وحرص عليه، فماذا سيعطيه الآن، فيجيب المال أن ليس لصاحبه عنده أكثر من الكفن، ثم يتجه إلى أبنائه فيذكرهم بأنه رعاهم وحماهم، فماذا سيقدمون إليه؟ فيجيبون بأنه يأخذونه إلى القبر ويهيلون التراب عليه، ثم يتجه إلى عمله ويسأله نفس السؤال فيجيب بأنه سيظل معه في القبر ويوم القيامة حتى يعرضوا جميعاً على الخالق عز وجل. فإن كان هذا الإنسان صالحاً من أولياء الله، يتمثل أمامه شخص جميل الوجه طيب الرائحة حلو الهندام فيبشره بـ ﴿ **فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾[1] وأنه سيدخل أفضل منزل. فيسأل الإنسان الصالح: من أنت، فيجيبهُ: أنا عملك الصالح، فاستعد للجنة، ثم يطلب هذا الشخص من المغسل والحامل أن يسرعوا في عملهم. وعندما يرد القبر يأتيه الملكان، شعرهما طويل وأسنانهما تصل إلى الأرض، صوتهما كالرعد، وعيونهما كالبرق، يسألانه: من ربُك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فيجيب: الله ربي. ومحمد (ص) نبيي والإسلام ديني. بعدها، يدعوان له، بأن يثبته الله فيما يحب، وهذا هو مضمون الآية: ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا** ﴾[2] ثم يقوم الملكان بتوسيع القبر ويفتحان له باباً على الجنة ويقولان: ادخلها هانئاً قرير العين، وهو مضمون الآية الكريمة ﴿ **أصحاب الجنة خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾.

أما لو كان هذا الإنسان عدواً لله، فيأتيه شخص بملابس قذرة، رائحته نتنة فيبشره بـ ﴿ **نزل من حميم وتصلية جحيم** ﴾[3]، ثم يطلب من المغسل

(١) الواقعة: ٨٩.
(٢) الحشر: ١٦.
(٣) الواقعة: ٩٣ ـ ٩٤.

والحامل أن يتباطأوا في عملهم. وعندما يدخلونه القبر يأتيه الملكان فيسحبانه من كفنه ويسألانه: من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فيجيبُ: لا أدري، فيقول الملكان له: لم تعرف، ولم تهتدِ. ثم ينهالان عليه ضرباً بسياط من حديد ونار، لدرجة تبعث الرعب في كل موجودات الأرض، إلا الجن والإنس. بعدها يفتحان له باباً على نار جهنم ويقولان له: ابق في أسوأ وضع، ثم يضيق عليه القبر ويضغطه حتى يخرج مخه من رأسه، ثم يسلط الله تعالى عليه، من ثعابين وعقارب وحشرات الأرض لتلدغه وتنهش جسمه، ويستمر هذا حتى يتمنى ويدعو الله أن يقيم الساعة ليتخلص من هذا العذاب.

إن الآية الكريمة ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا...** ﴾ تشير إلى هذه الآية ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾[1]. ففي هذه الآيات يبين الباري عز وجل أن هناك كلمات لها جذور وأصول ثابتة تؤتى ثمارها الطيبة في كل زمان، هذه الكلمات وصفها الله بالطهارة وأشار إلى أنها تصعد إليه. وكذلك يصعد العمل الصالح إليه.

كما قال الله تعالى: من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً[2] ثم بيّن طريق الوصول إلى هذه العزة ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾[3]. ففي هذه الآيات أوضح الباري عز وجل أنه يثبت المؤمنين بهذه الكلمات الطيبة في الدنيا والآخرة، فهو يقرن الكلام ـ بلحاظ نية الإنسان ـ بصفة الثبات. وتكون النتيجة، أحد أمرين، أما أن يثبت الإنسان «بالقول الثابت» أو أن ينزلق ويضل بـ «القول غير الثابت» الذي عبر عنه القرآن الكريم بـ «الكلمة

---

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧

(٢) فاطر: ١٠.

(٣) فاطر: ١٠.

الخبيثة»، والنتيجة الطبيعية تكون، طريق السعادة، أو طريق الشقاء في الآخرة بعد المحاسبة والسؤال، وهما طريقان لا يمكن أن يتساويا.

ومن جانب آخر، فإن الخالق جل وعلا يخبرنا أن القول الطيب والثابت، يعطي ثماره ونتائجه، دائماً بإذنه هو ومن خلال الآيات السالفة الذكر، نستنتج أن منافع وثمار القول الطيب تظهر في أي زمان أو مكان، وهذا يعني أن السؤال والحساب موجودات في كل زمان ومكان.

ومن خلال تمسك الإمام الصادق (ع) بالآية السالفة الذكر، يمكن استنباط هذه الحقيقة، وهي أن الله سبحانه وتعالى جعل البرزخ استمراراً لحياة الدنيا، فعبارة (وهذا هو قول الله تعالى بأن أصحاب الجنة) الواردة في الحديث، إنما تشير إلى قوله تعالى ﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾[1] هذه الآيات هي من أكثر الآيات صراحة بشأن البرزخ، والمقصود بـ «مقيل»، النوم في فترة ما قبل الظهر. ومعروف أنه ليس في جنة الآخرة نوم، ورغم أنه ليس في البرزخ أيضاً من أشكال نوم الدنيا، إلا أن المقصود بالآية الكريمة، هو أنَّ مكانة البرزخ، من القيامة، بمثابة نوم القيلولة، بالنسبة إلى اليقظة. ومن هنا جاء الوصف الإلهي ليوم البعث بأنه يوم «القيامة»، وهذا ما يدعو الإمام إلى وصف حال الإنسان في البرزخ، بأنه يُفتح عليه أما باب على الجنة ثم يقال له: نم قرير العين، أو على جهنم فيقال له: نم في أسوأ حال.

ورغم أن هذا المضمون يتكرر في أحاديث عديدة أخرى، إلا أن أياً منها لا يتحدث عن دخول المتوفى، الجنة، بعد الموت مباشرة، بل تشير كل

---

(1) الفرقان: ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤.

الروايات إلى أن باباً تفتح له على الجنة ليشم من عبيقها ويرى منزله فيها، ثم يقال له نم هانئاً قرير العين.

وقد نقلنا فيما سبق، حديثاً عن الإمام الباقر، الذي يصف فيه الموت بالنوم. عندما سألوه عن الموت، فأجاب بأنه كالنوم الذي يأتيكم كل ليلة، والفرق أنه أطول مدة، ولا يصحو منه النائم، إلا يوم القيامة.

بناء على هذا فإن البرزخ ليس أكثر من عينة ونموذج للقيامة، وقول الإمام بأن القبر يتوسع بسعة ومدى قابلية عين المتوفى على الرؤيا، إنما هو تلميح جميل لهذا الأمر. أما المقصود بالآية ﴿ **يوم يرون الملائكة لا بشرى. . .** ﴾ فهو أول يوم يرى فيه المتوفى الملائكة، والدليل على ذلك قول المتوفى ﴿ **لولا أنزل علينا الملائكة** ﴾، وهذا اللقاء يتم في عالم البرزخ حيث تتحقق للإنسان البشرى أو عكسها.

المتوسطون لا يخضعون إلى الحساب

تفهم من الآية السالفة الذكر أن المحاسبة في القبر تطال المؤمنين والظالمين فقط، ولم تتطرق الآية إلى وضع المستضعفين والمتوسطين. ولعل هذا المفهوم يتضمنهُ العديد من الروايات. فقد ورد في «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام أن المؤاخذة والمحاسبة في القبر إنما تشمل أهل الإيمان الخالص، وأهل الكفر البحت فقط، دون الآخرين. وفي تفسير القمي، ينقل عن ضريس الكناسي أنه سأل الإمام الباقر(ع) عن حساب القبر، وحال من هو من الموحدين والمؤمنين بنبوة محمد (ص)، لكنه مذنب، وليس له إمام، ولا يعرف ولايتك، فأجاب: هؤلاء يبقون في قبورهم. فإن كانت لديهم أعمال صالحة ولم يناصبوا أهل البيت العداء. فتحت على قبورهم باب من الجنة، فيهب عليهم منها نسيم عطر يدخل السرور في قلوبهم، حتى يلاقوا ربهم يوم القيامة. فيحاسبهم، ويجازيهم على حسناتهم، ويؤاخذهم في سيئاتهم، هؤلاء أمرهم مرهون بالباري عز وجل.

وكذا الحال مع المستضعفين والبلهاء والأطفال، وأبناء المسلمين الذين لم يبلغوا سن الرشد. وعندما يقول الإمام (ع) أن أمر هؤلاء مرهون بالباري عز وجل، فإنه يشير إلى الآية الكريمة **﴿ وآخرون مُرْجَون لأمر الله أما يعذبهم وأما يتوب عليهم والله عليم حكيم ﴾**[1].

وخلاصة الأمر أن جميع البشر، يتعرضون للحساب الذي يتحدد على أثره، عيشهم في النعيم أو العذاب في الجحيم ويستثنى من ذلك المستضعفون ومن في عدادهم.

تجسم الأرواح في البرزخ:

ينقل الشيخ المفيد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله أن الله سبحانه وتعالى عندما يقبض روح إنسان، يبعثها في الجنة بنفس الشكل الذي كانت عليه في الدنيا، فتمارس هذه الأرواح نشاطات الأكل والشرب.

وينقل صاحب «الكافي» عن أبي ولاد الحناط أنه سأل الإمام الصادق (ع) عن شكل أرواح المؤمنين، فقال الإمام أنها تأخذ نفس الأشكال التي كانت عليها في الدنيا. وفي رواية أخرى في الكافي، يقول الإمام الصادق أن أرواح المؤمنين تتخذ نفس أشكالها الدنيوية فتتجمع على شجرة في الجنة لتتعارف فيما بينها وتسأل كل منها عن الآخرين، وكلما التحقت بها روح جديدة، قالت الأولى، أفسحوا لها، فإنها قادمة من الأهوال والخوف العظيم.

وهناك الكثير من الأخبار الواردة في هذا الشأن، لكنها تخص المؤمنين فقط، أما حال الكافرين، فسيأتي الحديث عنهم لاحقاً.

---

(١) التوبة: ١٠٦.

ورد في «الكافي» عن الإمام الصادق (ع) أن الشخص المؤمن، يلتقى ذويه بعد موته، فيحدثهم عما شاهده وأدخل السرور عليه، ويخفي عنهم ما لقيه من أذى. وفي رواية أخرى يقول الإمام (ع) أن كل متوفى، سواء كان مؤمناً أو كافراً، لا بد وأن يلتقي ذويه كل ظهيرة، فإن رأى المؤمن ذويه يعملون صالحاً، يحمد الله، وإن رأى الكافر ذويه يعملون صالحاً، يغبطهم على ما هم عليه.

وفي «الكافي» أيضاً ورد عن إسحاق بن عمار أنه سأل أبا الحسن (ع) هل يزور المتوفى ذويه أم لا؟. فيجيبه: نعم. ثم يسأله: كم مرة يزورهم، فيجيب الإمام بأن ذلك يعود إلى منزلته ومقامه عند الله، فقد يكون كل أسبوع أو كل شهر، أو كل عام، ثم يسأل: وكيف يزور المتوفى ذويه، فيجيب الإمام (ع) بأنه يزورهم كما يقف الطير الجميل على حائط دارهم ويطلع على ما يعملون، فيفرح إذا رآهم في خير وعافية ويحزن إذا رآهم في ضيق وأذى.

وهناك الكثير من الروايات الواردة في هذا الشأن والتي تشترك في المضمون السالف الذكر، وباعتقادنا فإن تصوير الشخص على هيئة الطير الجميل، إنما هو من باب تجسم الأرواح.

وربما يمكن إدراك معنى الرواية المذكورة آنفاً، من خلال الوصف القرآني **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنّ الله لا يضيع أجرَ المؤمنين ﴾**[1].

إن المقصود بـ «الاستبشار» هو استلام البشرى والسرور بها، وعبارة «يستبشرون بنعمة..» توضيح لعبارة «ويستبشرون بالذين لم يلحقوا..». إذن

---

(١) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠، ١٧١.

فهذه الآيات تبين لنا أن المقتولين في سبيل الله، يفرحون ويسعدون لكون ذويهم في نعمة وسعادة، وأن ذويهم يعملون صالحاً، ولما كان الله تعالى لا يضيع أجر عاملٍ، فإنه يجازي هؤلاء على أعمالهم وينزل عليهم بركاته والقتلى في سبيله يرون كل هذا.

ولهذه الآية، مضمون مشابه لما سلف: ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون** ﴾[1].

حديث الشيطان مع أتباعه في القبر

يقول الإمام الصادق (ع) ـ كما ورد في الكافي ـ حول حساب القبر، أن الميت إذا كان كافراً، يقول له الملكان: من هذا الذي معك، فيقول لا أدري، بعدها يتركه الملكان وحيداً مع الشيطان. وفي تفسير العياشي وردت هذه الرواية أيضاً، وهي مستوحاة من الآية الكريمة ﴿ **ومن يَعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين** ﴾. و﴿ **حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾[1].

والحقيقة الثابتة هي أن عالم البرزخ، أوسع من عالم الدنيا بعدة مرات، ذلك أن «المثال» هو أوسع واكبر من الجسم المادي. وعلى هذا فإن كل ما ورد في الكتاب والسنة حول «البرزخ»، لم يكن أكثر من عموميات أوردت للمثال فقط، ولم تكن تفصيلاً وشرحاً كاملين للموضوع.

الموضوع الآخر الذي يجب إدراكه، هو أن الكثير من الأخبار والروايات، اعتبرت الأرض، مكاناً للجنة ونار البرزخ، وكذلك مكاناً للقاء الأموات مع

---

(١) التوبة: ١٠٥.

(١) الزخرف: ٣٦، ٣٨.

ذويهم، وهذا الأمر، يفهم منه أن العلقة المادية لعالم الأرواح، لا تنقطع بشكل كامل، وهذا هو الواقع.

وفي كثير من الأخبار ورد أن جنة البرزخ تقع في وادي السلام، وناره في «وادي برهوت»، أما مكان اجتماع الأرواح فهو عند قبة الصخرة في بيت المقدس.

وفي روايات أخرى، ورد أن الأئمة، شاهدوا أرواحاً في أماكن مختلفة، وهذا الأمر تكرَّر مع الأولياء الصالحين في حالات عديدة، وكل ذلك دليل على وجود نوع من علقة الروح، لأسباب ترتبط بقدسية المكان أو الزمان أو الظروف المحيطة.

الفصل الثالث:

النفخ في الصّور

يقول الباري عز وجل: ﴿ **ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾[1] و﴿ **نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[2].

نفهم من الآيتين الكريمتين أن هناك نفختين: الأولى، للإماتة، والثانية للإحياء، ولم يأت في الآيات الواردة في هذا الشأن ما يمكننا من تفسير «الصور» لفظياً، أما معناها اللغوي فهو البوق الذي ينفخ فيه فيعطي صوتاً عالياً.

بالنسبة للنفخة الأولى، فإنها وردت في آيتين في سورتي النمل والزمر السالفتي الذكر فقط، لكن القرآن الكريم عبر عنها في أماكن مختلفة بـ«الصيحة» و«الصاخة» وهي الصيحة القوية و«النقر»: ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾[3]. ﴿ **فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة** ﴾[4] ﴿ **فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه** ﴾[5]

---

(١) النمل: ٨٧.
(٢) الزمر: ٦٨.
(٣) يس: ٥٣.
(٤) النازعات: ١٣، ١٤.
(٥) عبس: ٣٣، ٣٤.

﴿ فإذا نقر في الناقور. فذلك يومئذ يوم عسير. على الكافرين غير يسير ﴾[1].

﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾[2].

من هنا يمكن إدراك أن المعني بـ «الصور» في النفختين؛ هو البوق الذي كان يستخدم في إعطاء الأوامر للجند، للاستعداد للحرب ثم خوضها. ففي الأولى، ينفخ في «الصور» أن اصمتوا! و «استعدوا للتحرك» ثم ينفخ ثانية أن «انهضوا» و «ابدأوا الهجوم».

إذن فالصور، حقيقة واقعة، تشهد صيحتان الصيحة المميتة، والصيحة التي تحيي ثانية.

ورغم أن القرآن الكريم لم يقدم تفسيراً كاملاً لكلمة «الصيحة» لكنه استخدمها في أكثر من ثمانية عشر حالة، ولا مناص من إتخاذ معناها الحقيقي المعروف. كما أن الباري عز وجل عبر عنها أحياناً بـ «النداء»، وهو ما لا يكون بدون معنى محدد.

وحيث أن الباري عز وجل يتحدث عن سماع الناس للصيحة، وبما أن «السماع» يقوم به الأحياء فقط. وأن الله يخبرنا عن صعق هؤلاء؛ فإننا ندرك أن المقصود بحياة هؤلاء هي مجرد سماع الصيحة، ولما كان من غير المنطقي القول بسماع الصيحة التي تبعث فيهم الحياة، بعد القول أنهم أحياء، إذن، فإن المقصود هو أن الصيحة أو النفخة ليست أكثر من كلمة إلهية تميت الناس ثم تحييهم، فالله تعالى يقول: ﴿ هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[3].

---

(١) المدثر: ٨، ٩، ١٠.

(٢) ق: ٤١، ٤٢.

(٣) المؤمن: ٦٨.

وعلى هذا فإن النفختين المذكورتين، هما كلمتان إلهيتان، الأولى تميت، والثانية تحيي.

والأمر الجدير بالملاحظة هو أن الباري عز وجل عبّر عن الإماتة بكلمة «صعق» وليس «الموت»، ربما لأن الموت، لفظة تطلق على خروج الروح من البدن، بينما حكم النفخ، يشمل كل الموجودات في السموات والأرض، بما في ذلك الملائكة والأرواح، وفي قوله تعالى ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى** ﴾[1] الذي يصف فيه أصل الجنة، إشارة إلى هذا الأمر. وفي مكان آخر وصف الباري عز وجل الصعقة بـ«الموت»، وذلك في الآية الكريمة ﴿ **ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل** ﴾[2] مع التأكيد بأن «مرتين» لا يقصد منها التكرار. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾، وهذا يعني أن حكم البرزخ يشمل الجميع، وبناء على هذا، فإن المقصود بـ«من في الأرض» الذين يشملهم «الفزع» و«الصعقة»، ليس الذين هم على قيد الحياة على الأرض بل المقصود به أولئك الذين قال الله تعالى عنهم ﴿ **يوم تقوم الساعة. يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتوا العِلمَ والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون** ﴾[3] ﴿ **قل كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فَسْئَلَ العادين. قُل إن لبثتُم إلاّ قليلاً لو أنّكم كنتم تعلمون** ﴾[4]. ﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجَمَلُ من سِمّ الخياطِ وكذلك نجزي المجرمين** ﴾[5]. إذن فهؤلاء أهل الأرض، حتى لو كانوا في عالم البرزخ.

---

(١) الدخان: ٥٦.

(٢) المؤمن: ١١.

(٣) الروم: ٥٥، ٥٦.

(٤) المؤمنون: ١١٢، ١١٥.

(٥) الأعراف: ٤٠.

أما المقصود بـ «من في السماء» فهم الملائكة وأرواح السعداء. فالله تعالى يقول: ﴿ **وفي السماء رزقكم وما تُوعدون** ﴾[1] و ﴿**لكم ميعاد يوم**﴾[2] و ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات** ﴾[3] و ﴿ **أجل مسمى عنده** ﴾ و ﴿ **إليه يصعد الكَلِمُ الطيّب** ﴾ و ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا، وتعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ وآيات أخرى كثيرة.

إذن فإن الآيات الدالة على وقوع الصيحة على أهل الأرض، تدل كلها على أنها تؤدي إلى انقلاب الأرض ودمارها على أهلها، كما يتضح من الآية: ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾[4]، و ﴿ **كل من عليها فان** ﴾[5].

خلاصة الأمر، أن الصيحة الأولى تُطلقُ، فتقلب الدنيا بمن فيها، ويفنى أهلها، ثم ينفخ في الصور، فيموت جميع من في عالم البرزخ، ثم ينفخ ثانية، فيبعث الناس جميعاً وتقوم القيامة.

وهناك نقطة مهمة وهي أن الآيتين الكريمتين ﴿ **ما خلق الله، السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** ﴾[6] و ﴿ **أجل مسمى عنده** ﴾ قد قرنتا موت كل الموجودات الحية، بالأجل المحدد، وهذا يعني أنه لا يمكن لأي موت أن يقع بشكل اعتباطي، إنما بأجل مكتوب. وهذا ينطبق على الصيحة والنفخ أيضاً إذ لا يمكن أن يؤديا إلى الموت إلا بأجل معلوم.

---

(١) الأعراف: ٤٦.

(٢) الذاريات: ٢٢.

(٣) سبأ: ٣٠.

(٤) يس: ٤٩، ٥٠.

(٥) الرحمن: ٢٦.

(٦) الروم: ٨.

وأما فيما يتعلق بعبارة ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ الواردة في آيتي الفخ، فإنها تدل على استثناء البعض من حكم النفخ في الصور، وهو ما يتضح من الآية ﴿ **يوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾. لكن ما طبيعة هذا الاستثناء وما أسبابه؟. الآية التالية تجيب على السؤال: ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[1]. أن المقصود بالحسنة المقرونة بكلمة «أمن» والمضادة في معناها لـ «السيئة». هي الحسنة المطلقة، وليست المشوبة بالسيئة، ولهذا لو كانت أعمال إنسان ما، حليط من الحسنات والسيئات، لما كان آمناً من الفزع يوم ينفخ في الصور، بسبب وجود السيئات في أعماله، والإنسان الوحيد الذي يكون آمناً من الفزع، هو صاحب الحسنات الخالصة الخالية من أية سيئة.

وأحياناً يطلق الله تعالى على السيئات اسم «الخبائث»، فهو القائل ﴿ **ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم** ﴾[2] وكذلك ﴿ **الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطبات للطيبين والطيبون للطيبات** ﴾[3]. كما إنه اعتبر الكفر والنفاق في خانة النجاسة والرجس فقال عز وجل ﴿ **وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾[4]. و﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾[5]، بل إنه اعتبر بعض درجات الإيمان، من الشرك حينما يقول: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله وهم مشركون** ﴾[6].

---

(١) النحل: ٨٩، ٩٠.
(٢) الأنفال: ٣٧.
(٣) النور: ٢٦.
(٤) التوبة: ١٢٥.
(٥) التوبة: ٢٨.
(٦) يوسف: ١٠٣.

إذن، فالذي نفسه طاهرة من الشرك، هو ذلك الذي لا يؤمن بغير الله، ولا تطمئن نفسه إلى غيره، فلا يرى لله شريكاً لا في وجوده، ولا في صفاته ولا في أفعاله. هذا هو المقصود بالولاية، وهؤلاء هم الذين تقول عنهم الآية الكريمة ﴿ **الذين تتوفهم الملائكة طيبين** ﴾ لأنهم طهّروا أنفسهم بالولاية ﴿ **يقولون سلام عليكم** ﴾، والمقصود بالسلام هنا، هو الأمن الذي مضى كحديث عنه.

على هذا، يظهر لنا أن «الحسنة» هي الولاية والآية التالية تشير إلى ذلك ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسْناً إن الله غفور شكور** ﴾[1].

وفي تفسير القمي للآية الكريمة ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها** ﴾ ورد عن أحد الأئمة قوله: والله إن الحسنة هي الولاية بعينها وأن السيئة هي اتباع أعداء الله. وفي الكافي ورد عن الإمام الصادق، نقلاً عن الإمام علي عليه السلام أن الحسنة هي معرفة الولاية وحبنا نحن أهل البيت وأن السيئة هي إنكار الولاية وبغض أهل البيت، ثم تلا الآية التي مرَّ ذكرها.

مما تقدم يمكن أن ندرك معنى الآية الكريمة ﴿ **ونُفِخَ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ إذ يبدو من ظاهر الآية، أن الذين تصيبهم الصعقة في النفخة الأولى هم أنفسهم الذين يشملهم «القيام» يوم يقوم الناس لرب العالمين، بدليل الآية الكريمة ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة، فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾[2]، لكن الله تعالى يستثني من هؤلاء المحضرين، عباده المخلصين، عندما يقول عز وجل ﴿ **فإنهم المحضرون إلا عباده المخلصين** ﴾. ثم يصف هؤلاء العباد المخلصين، بما جاء على لسان إبليس ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك المخلصين** ﴾[3].

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) يس: ٥٣.

(٣) ص: ٨٢، ٨٣.

وهكذا فإن الله تعالى يؤكد لنا، أن الشيطان لا يجد طريقاً إلى هؤلاء العباد، فلا يتمكن من إغوائهم. وهذا الإغواء، جاء بشكل «وعدٍ» من الشيطان: ﴿ **قال الشيطان لما قضى الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم** ﴾ إلى أن يقول ﴿ **فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنت بمصرخيّ إنّي كفرت بما أشركتمُونِ مِن قَبْلُ إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾[1].

وهنا نلاحظ أن الشيطان يرجع لوم أتباعه عليهم، لأن ذنوبهم تعود إلى شركهم بالله، فظلموا أنفسهم وإن الله أعدَّ للظالمين عذاباً أليماً.

إذن فالعباد المخلصين هم الذين لم تتلوث قلوبهم ونفوسهم بالشرك، وهم يرون الله وحدهُ في كل شيء ولا يملكون من أمر نفعهم أو ضرهم أو حياتهم أو مماتهم شيئاً، وهذه هي الولاية.

هؤلاء العباد المخلصين، هم أولياء الله، وهم مستثنون من حكم الصعقة والفزع. ففي حين يموت كل من في الأرض والسماء بنفخة في الصور، يواصل هؤلاء حياتهم. يقول تعالى: ﴿ **يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب** ﴾[2] و﴿ **السموات مطويات بيمينِهِ** ﴾. وهذا يعني أن السماوات بمن فيها، سيحلّ أجلها وستطوى. ومن هنا ندرك أن المخلصين الذين تستثنيهم الصعقة والفزع، هم ليسوا في السماء، بل هم في ما وراء السماوات والأرض مما يعني أنهم معنيّون بالآية ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾[3] أي أنهم من الـ «وجه»، وعندما تقول الآية ﴿ **فإنما تولوا فثم وجه الله** ﴾ فإن العباد المخلصين (أولياء الله) سيحيطون بالعالم أيضاً، وسيرون كل شيء، من خلال إحاطة «وجه الله» به.

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

(٣) الزمر: ٦٧.

وفي آية أخرى، وبعد أن يبين الله تعالى أن أهل الجنة في السماء، وأهل النار في النار، يأتي إلى توضيحه بشكل آخر فيقول ﴿ **وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلًّا بسيماهم** ﴾[1] وسيأتي تفصيل ذلك في مكان آخر.

إذن يتضح لنا أن العباد المخلصين سيكونون في مأمنٍ من الشدائد والأهوال التي تقعُ بين النفختين ﴿ **فإذا نُفِخَ في الصور نفخةٌ واحدةٌ. وَحُمِلتِ الأرض والجبالُ فدُكَّتا دكةً واحدة، فيومئذٍ وقعت الواقعة** ﴾[2]. والدكّ، بمعنى التدمير، فعندما تقول دككت الشيء يعني أنك دمرته وسويته مع الأرض.

يقول الباري تعالى: ﴿ **يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة** ﴾[3].

و﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً** ﴾[4] و﴿ **إن زلزلة الساعة شيء عظيم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حَمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾[5] و﴿ **فإذا الجبال سيِّرت** ﴾[6] و﴿ **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾[7] و﴿ **فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر** ﴾[8] و﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾[9] و﴿ **إذا الكواكب انتثرت** ﴾[10] و﴿ **إذا العشار عطلت** ﴾[11]و﴿ **إذا البحار سجرت** ﴾[12]!

إن ظاهر هذه الآيات يشير بشكل كبير إلى مقدمات «الساعة» و«القيامة»، وخراب الدنيا، وهلاك أهلها.

---

(١) الأعراف: ٤٦.
(٢) الحاقة: ١٣، ١٤، ١٥.
(٣) النازعات: ٦، ٧.
(٤) المزمل: ١٤.
(٥) الحج: ١، ٢.
(٦) التكوير: ٣.
(٧) القارعة: ٥.
(٨) القيامة: ٧، ٨، ٩.
(٩) التكوير: ١.
(١٠) الانفطار: ٢.
(١١) التكوير: ٤.
(١٢) التكوير: ٦.

الآخرة بعد الدنيا

النقطة التي يجب الانتباه لها، هي أن حقيقة (فناء الدنيا قبل قيام الساعة)، يثبت لنا حقيقة أخرى، وهي أن القيامة. تأتي بعد الدنيا، كما هو الموت، الذي يثبت لنا بأن البرزخ يأتي بعد الدنيا، ولولا ذلك، لكنا اعتمدنا قاعدة «إحاطة عالم المثال، بالعالم المادي ـ أي الدنيا ـ» لنقول أن «البعث والنشور» محيط بالدنيا والبرزخ أيضاً.

وحتى، لو غضضنا الطرف عن قضية الإحاطة، فإن انقلاب الزمان، وفناء الأشياء، والحركات في الفترة الفاصلة بين النشأتين، يوجب بطلان نسبة الزمان وانتفاء موضوع «بعد» و«قبل» الزمانيتين.

الآيات الدالة على أحوال القيامة

هناك آيات تشبه في سياقها العام، الآيات التي أسلفنا الحديث عنها، لكنها تشير إلى مضامينها بشكل مختلف. مثلاً ﴿ **وسيّرت الجبال فكانت سراباً** ﴾[1] إذ يتضح منها أن حركة الجبال وتبعثرها كالحجر والحصى، ثم تناثرها كالقطن المندوف، لا يعني أنها تصبح سراباً أبداً. كما يقول الله تعالى: ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، صنع الله الذي أتقن كل شيء** ﴾[2]. فالرؤية، «وترى»، أما أن تقع في وقت الخطاب، أو في وقت النفخ، ومجيء هذه الآية، بعد آية «النفخ» إنما يدعم الاحتمال التالي، وعلى هذا فإن الآية السالف ذكرها، تنطبق على زلزلة «الساعة»، حينما ﴿ **تذهل كل**

---

(١) النبأ: ٢٠.

(٢) النحل: ٨٨.

مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى... ﴾.

لكن هذا المعنى، لا ينسجم مع عبارة ﴿ **تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب** ﴾، لأنها تعني أن الجبال تظل على ما كانت عليه من استقامة وعظمة، كما تدل على ذلك أيضاً عبارة ﴿ **صنع الله الذي أتقن كل شيء** ﴾. التي تشير إلى أن هذه الجبال لا تتصدع بهذه السهولة.

إذن فحركة الجبال، لا تتنافى وثبات الجبال ورسوخها، وتزلزلها يتم بشكل متزامن مع تزايد استحكامها، وعلى هذا، فإن سرابية حركة الجبال يمكن أن ينسجم مع بقائها واتقان صنعها واستحكامها.

الفصل الرابع :

صفات يوم القيامة

يقول الله جل وعلا:

- ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار ﴾[1].
- و﴿ يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ﴾[2].
- و﴿ مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ﴾[3].
- و﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾[4].
- و﴿ لا يكتمون الله حديثاً ﴾[5].
- و﴿ والأمر يومئذ لله ﴾.

هذه الآيات، تصف يوم القيامة بصفات عديدة قد لا تختص بيوم القيامة فقط. فـ «الملك» و «الأمر» و «القدر» صفات دائمة لله تعالى، أما المخلوقات

---

(١) المؤمن: ١٦.

(٢) المؤمن: ٣٣.

(٣) الشورى: ٤٧.

(٤) الدخان: ٤١.

(٥) النساء: ٤٢

فهي مكشوفة له لا ملجأ لها منه لكن الله تعالى يقول:

﴿ **ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً، وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب** ﴾[1]، إذ يوضح أن كل السبل والعلاقات تتقطع آنذاك. وينعدم تأثير كل الارتباطات وتأثيرات الموجودات في نظام الوجود المادي وما يليه. فلا يعود هناك تأثير لشيء على شيء آخر فلا ينفعُ شيءٌ شيئاً آخر، ولا يضر. وذلك بسبب الأسباب والارتباطات.

ويوم القيامة لا يختلف بشيء. فلا شيء يفنى إلا بفناء ذوات الموجودات وانقلاب ماهيتها، وبما أن كلمات الله ثابتة لا تتغير، فلا شيء يتغير مما يرتبط بها، بل إن الذي يزول، هو ما يتعلق بالموجودات السرابية، إذ يزول كل شيء، إلا ارتباط الموجودات بالله تعالى، وبما أن تلك الارتباطات الأخرى كانت باطلة وسرابية من الأساس، فإن الذي يحدث هو انكشاف بطلانها، وليس فناؤها. أي انكشاف حقيقة أن لا وجود ولا تأثير لغير الله، فلا مالك غيره، ولا صاحب أمر. وهذا هو قوله تعالى: ﴿ **ملك يوم الدين** ﴾[2] و﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله** ﴾ و﴿ **لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار** ﴾[3].

وما وصلنا إليه سالفاً، من انكشاف بطلان الموجودات السرابية والأسباب الظاهرية، يرد في قوله تعالى: ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم** ﴾[4] حتى قوله ﴿ **لقد تقطع بينكم وظل عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾[5].

---

(١) البقرة: ١٦٥، ١٦٦.

(١) الفاتحة: ٤.

(٣) المؤمن: ١٦.

(٤) الأنعام: ٩٣.

(٥) الأنعام: ٩٤

وفي نهج البلاغة، نرى الإمام علي عليه السلام يؤكد أن وحدانية الله تتكشف بعد فناء الدنيا، وينكشف أنه الواحد الذي لا شريك له، وهو الباقي الواحد بعد فناء الدنيا، كما كان الواحد قبل خلقها، فينعدم الزمن، وتنتفي الأزمان والسنون، ولا يبقى إلا الله الواحد القهار الذي ترجع إليه كل الأمور.

وفي «الاحتجاج» ورد أن هشام بن الحكم سأل الإمام الصادق عليه السلام، عن الروح، هل تفنى بعد خروجها من قالبها «الجسد» أم أنها تبقى؟ فأجابه الإمام (ع) أن الروح تبقى حتى ينفخ في الصور وعندها يبطل كل شيء، فلا يبقى حسٌّ ولا محسوس ثم يعود كل شيء إلى أصله الذي خلقه الله عليه، وهذا يتم بعد فترة أربعمائة عام لا يتم فيها خلق شيء، وهذه الفترة رهن الزمن الفاصل بين النفختين.

ويضيف الإمام (ع) على ذلك، كما ورد في تفسير القمي: ثم يقول الله عز وجل: ﴿ **لمن الملك اليوم؟** ﴾ فيجيب هو بالقول: ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾.

أما في «التوحيد» فورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، أن الله تعالى يسأل: لمن الملك اليوم؟ فتجيب أرواح الأنبياء والمرسلين والحجج: لله الواحد القهار.

وينقل القمي في تفسيره حديثاً عن الإمام السجاد يقول فيه، إن الله تعالى ينادي حينذاك بصوت عال يملأ أرجاء السماوات والأرض: لمن الملك اليوم؟ ولأنه لا أحد يجيب، يقوم جل وعلا بمقام المجيب، ويقول: لله الواحد القهار.

لو أمعنا النظر في أحاديث الأئمة التي هي لغة واحدة ولا حظنا كيفية الجمع بين فناء السماوات والأرض، وبين زوال السنين واللحظات وثباتها، وبين فقدان الجواب على النداء الإلهي ووجوده، ثم تأملنا في جواب الباري عز وجل على نفسه ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾، وأمعنا النظر في كل صفة من صفاته ﴿ **الواحد** ﴾ و﴿ **القهار** ﴾ وفهمنا أبعاد ذلك كله، لأمكننا الوصول إلى صحة الاستنباط الذي توصلنا إليه فيما مضى.

عندما تأخذ كل الأشياء، وجودها المستقل، فإن كل الثوابت ستعود إلى مجموعة تحققات سرابية ووهمية، وسينكشف بطلان الأسباب والمسببات، وهذا هو معنى الكلام الإلهي: ﴿ **ما لكم من الله من عاصم** ﴾. و﴿ **مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير** ﴾ و﴿ **ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه** ﴾[1] و﴿ **يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً** ﴾ و﴿ **لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ و﴿ **ولا تنفعها شفاعة** ﴾ و﴿ **ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين** ﴾[2]. فالآية الأخيرة تدل على أنهم كانوا مخدوعين بسراب الدنيا ولعبها، إذ يقول الباري عز وجل أن الله يضل الكافرين بهذا السراب. وفي الآية الكريمة التالية، ما يشابه هذا المعنى ﴿ **ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاءكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون** ﴾[3] و﴿ **تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾[4] وكل ذلك يعود الكلام الإلهي ﴿ **ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزلَ الله بها من سلطان** ﴾[5] و﴿ **ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[6].

يوم القيامة وكشف الحجب والخفايا

عندما تنتفي كل الأسباب والمسببات وما يترتب عليها من تأثيرات، فإن ينكشف كل «باطن» ليتحول إلى «ظاهر»، وعند ذاك يتحد الغيب والشهادة، لأن

---

(١) الحاقة: ٢٨، ٢٩.
(٢) المؤمن: ٧٣، ٧٤.
(٣) يونس: ٢٨.
(٤) القصص: ٦٣.
(٥) يوسف: ٤٠.
(٦) الذاريات: ٥٦.

كل شيء، هو في حد ذاته، شهادة، أما الغيب فله معنى نسبي، ففقدان الشيء، إنما يتم بالنسبة إلى شيء آخر، وتلاشي شيء يتم بالنسبة إلى آخر أيضاً، ولا فرق في ذلك، إن كان عدم الإدراك يتم من قبل الحس أم بسبب آخر.

مع انتفاء الأسباب، ترفع كل الحجب التي تخفي الأشياء عن بعضها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ **يوم هم بارزون لا يخفىٰ على الله منهم شيء** ﴾ و﴿ **برزوا لله جميعاً** ﴾ و﴿ **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾[1] وفي هذا السياق أيضاً تأتي الآيات ﴿ **يوم تبلىٰ السرائر** ﴾[2] و﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور أن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾[3] و﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾[4]. وقد يمكن تفسير الآيات الواردة حول بروز الأرض، على أساس الآيات السالفة الذكر.

ورد في «الكافي»، نقلاً عن الإمام الصادق (ع) الذي يقول حول الآية ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون . . .** ﴾ أنَّ المراد بالقلب السليم، هو ذلك الذي يلقىٰ الله تعالى دون ان يكون فيه مكان لغيره، وما يعنيه الأنبياء والأولياء بالزهد بالدنيا، هو أن تخلو القلوب من أي مشاغل غير الآخرة.

وطبيعي أن القول الإلهي ﴿ **كلا إنهم عن ربهم لمحجوبون** ﴾ لا يتعارض مع ما بيناه آنفاً. فهذه الآية تنفي عن غير المؤمنين، التكريم الذي يخص المؤمنين والواقع أن هذه الآية، تصديق للقانون الإلهي ﴿ **لا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾، وبما أن غير المؤمنين، وضعوا في حياتهم حجاباً بينهم وبين خالقهم، ولا بد أن يجدد مصداق ذلك يوم القيامة، وهذا ما يتضح من

---

(١) ق: ٢٢.

(٢) الطارق: ٩.

(٣) العاديات: ٩، ١٠، ١١.

(٤) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

الآية ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾[1].

«القيامة» محيطة بالدنيا والبرزخ

إن انتفاء الأسباب وزوال الحجب، وانكشاف البواطن المحيطة بالظواهر، كلها تدل على أن القيامة محيطة بالدنيا، ومحيطة بما فيها هي بالذات، وما سيأتي بعدها. فالباطن يضم الظاهر، الذي هو حاضر فيه، لكن عكس ذلك غير صحيح، وهذا هو مفاد القول الإلهي.. ﴿ ويقولون متى هو قل عسىٰ أن يكون قريباً ﴾[2] و﴿ أخذوا من مكان قريب ﴾ و﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾[3] و﴿ ما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾[4] و﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾[5]. وفي هذا السياق أيضاً ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمىً لقضي بينهم ﴾[6]. فالـ«سبق» بالنسبة إلى شيء معين، يعني أنه يؤدي إلى «الحيلولة»، فمثلاً عندما تقول «سبقت إلى مكان كذا» يعني أن هناك شيء آخر، يمكن أن يصل إلى هذا المكان، وأنت أصبحت حائلاً بينه وبين المكان عندما سبقته إليه، إذن كلمة الله سبقت فحالت بينهم وبين الأجل المسمىٰ الذي هو ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[7] كل هذا يدل على أن القيامة محيطة بهؤلاء، ولولا الحائل الإلهي الذي حال بينهم وبين «الأجل»، لشملهم جميعاً الحكم القطعي للقيامة. والآيات التالية تأتي في نفس السياق: ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحيها ﴾[8] و﴿ كأنهم

(١) القلم: ٤٢، ٤٣.
(٢) بني إسرائيل: ٥١.
(٣) الملك: ٢٧.
(٤) النحل: ٧٧.
(٥) آل عمران: ٣٠.
(٦) الشورى: ١٤.
(٧) البقرة: ٣٦.
(٨) النازعات: ٤٦.

يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾[1] و﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فأسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلاً لو كنتم تعلمون ﴾ و﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾[2].

ظهور الباري عز وجل في ذلك اليوم

إن انكشاف الباطن، وانتفاء الظاهر الذي تحدثنا عنه، يؤدي إلى أن يظهر الباري عز وجل في ذلك اليوم، فالحجب ترفع، والحق يكشف، ويصل الجميع إلى غاية الغايات، ويبلغون في سعيهم منتهى النهايات، وهذا هو البيان الإلهي:

﴿ يسئلونك عن الساعة أيان مرسيها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهيها ﴾[3].

و﴿ إن إلى ربك المنتهى ﴾[4].

و﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾[5].

و﴿ إليه ترجعون ﴾.

و﴿ إليه المصير ﴾.

و﴿ إلا إلى الله تصير الأمور ﴾[6]

و﴿ يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل إنما العلم عند الله ﴾.

و﴿ يسئلونك عن الساعة أيان مرسيها قل إنما علمها عند ربي لا

---

(1) الأحقاف: ٣٥.
(2) الروم: ٥٦.
(3) النازعات: ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤.
(4) النجم: ٤٢.
(5) الانشقاق.
(6) الشورى: ٥٣.

يُجلّيها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتةً يسئلونك كأنك حفيّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1].

إن هؤلاء السائلين، تصوروا أن القيامة أمر زماني تمتد جذوره في زمانهم، فسألوا: متى ذلك؟! فأراد الله صرف اهتمامهم إلى موضوع آخر يمكن لهم إدراكه، ولما أصروا في سؤالهم، أجابهم جل وعلا بأن علم القيامة عنده. ولا يمكن أن يكشف ليس بسبب معلوماتنا الناقصة، بل لمصلحة خفية، ولهذا فإن الله تعالى أتبع الجواب بعبارة ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾.

تبدد الظلمة يوم القيامة:

عندما ترفع حجب الدرجات والمستويات والخفايا يوم القيامة، ولا يبقى شيء خافياً على آخر، سيمتلىء الفضاء بالنور. ذلك أن حقائق الأمور قد تجلت، وهذا هو قوله تعالى ﴿ **وفتحت السماء فكانت أبواباً** ﴾[2] و﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات... وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾[3] و﴿ **إن الدار الآخرة لهي الحيوان** ﴾[4] و﴿ **إذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت** ﴾[5] و﴿ **أخرجت الأرض أثقالها** ﴾[6].

وقد ورد في تفسير القمي، حديث عن الإمام السجاد عليه السلام، حول ﴿ **تبدل الأرض غير الأرض** ﴾، يقول فيه أن المقصود بـ﴿ **غير الأرض** ﴾،

(١) الأعراف: ١٨٧.

(٢) النساء: ١٩.

(٣) الزمر: ٦٩.

(٤) العنكبوت: ٧٤.

(٥) الانشقاق: ٣، ٤.

(٦) الزلزلة: ٢.

هي أرض لا يرتكب عليها ذنب، أرض ظاهرة مكشوفة، لا يشاهد عليها أي نبات أو جبل، كما خلقها الله تعالى مستوية أول مرة، أما عرشه فيكون على الماء، كما كان أول مرة، قائماً على العظمة والقدرة الإلهية. وليس هناك تناقض بين ما فهمناه عن نورانية الموجودات يوم القيامة، والآيات التي تتحدث عن حرمان الكفار من النور، مثل ﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾[1].

و﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم** ﴾[2] و﴿ **نحشره يوم القيامة أعمىٰ** ﴾[3].

بينما قال الله تعالى عن المؤمنين:

﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾[4].

و﴿ **لهم أجرهم ونورهم** ﴾[5].

و﴿ **كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[6].

و﴿ **أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾[7]

إن الظلمات التي يعانيها الكفار يوم القيامة، هي نفس الظلمات التي اشتروها في حياتهم، فعجلت لهم يوم القيامة. وفي ذلك نعرف أن كلا الظلمة والنور موجودان يوم القيامة، فالمؤمنون يتعمون بالنور، بينما يحرم المشركون منه. وعلى نفس السياق، فقد مرَّ الحديث آنفاً عن رفع الحجب بين الإنسان وخالقه.

---

(١) النور: ٤٠.

(٢) الحديد: ١٣.

(٣) طه: ١٢٤.

(٤) الحديد: ١٢.

(٥) الحديد: ١٩.

(٦) الأنعام: ١٢٢.

(٧) البقرة: ٢٥٧.

وفي القرآن الكريم آيات أخرى في نفس الموضوع: ﴿ **فألقوا السلَمَ ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾[1]، و﴿ **يحلفون له كما يحلفون لكم** ﴾[2]. وبهذا الصدد توجد روايات تفيد بأن المشركين يكذبون يوم القيامة، وهذا ما يعتبر، ظهوراً للمعصية التي قاموا بها في حياتهم، وبالتالي فإن ذلك لا يتنافىٰ مع مقولة أن الكذب غير ممكن يوم القيامة. ذلك أن كل عمل يقوم به الإنسان في حياته، سواء كان طاعة أم معصية، لا بد وأن ينكشف يوم القيامة. والله تعالى يقول ﴿ **ولا يكتمون الله حديثاً** ﴾[3].

---

(١) النحل: ٢٨.

(٢) المجادلة: ١٨.

(٣) النساء: ٤٢.

الفصل الخامس:

بعث الإنسان للمساءلة

لما كان المعاد، هو عودة الأشياء، بكل وجودها، إلى مصدرها الأول، وحيث أن هذه العودة، أمر ضروري، كما مر ذكره، فإنها يجب أن تتم بكل وجود الأشياء، بما يتضمنه هذا الوجود من مراتب ودرجات واتجاهات مختلفة. وعلى هذا فإن التحاق الجسم بـ «النفس» عند المعاد، أمر ضروري. فالنشأة الأولى (الدنيا) تتبدل إلى النشأة الأخرى، التي فيها آخر مراحل الكمال والحياة، وفيها يعود البدن إلى «النفس». فتعود إليه الحياة والنورانية.

في حديث الإمام الصادق (ع) إلى الزنديق المعروف ـ كما ورد في «الاحتجاج» ـ إشارة لهذا الموضوع إذ يقول له أن الروح تسكن في قالبها، فروح المحسن والمطيع تسكن في نور وراحة، بينما تسكن روح المذنب في الظلمة والشقاء. أما الجسم فيعود تراباً كما خُلق أول مرة، وما تأكله الحيوانات المفترسة والحشرات يتحول إلى فضلات تظل في التراب أيضاً. ولن يخفى على الله، ولو مثقال ذرة في ظلمات الأرض، فهو الذي لا تخفى عليه خافية، مهما صغرت حجماً ووزناً. ويظل تراب الموجودات ذات الروح، بين باقي التراب، كالذهب المدفون في الأرض. وعندما يحين وقت البعث، تمطر السماء، مطراً للبعث، بعدما تربت الأرض وتهتز، فيتميز تراب البشر عن باقي التراب، فيطفو وكأنه الذهب المغسول، ثم يتجمع التراب، كلٌ في قالبه، وينتقل، بإذن ربه، إلى

حيث الأرواح، وبإذن الله المصور تعود الأجسام إلى شكلها السابق، وتحلّ فيها الأرواح. فيكتمل الأمر، وتعود الأجسام وكأن شيئاً لم يتغير منها.

وهذه الصورة يمكن ملاحظتها في التمثيل القرآني للبعث، بأنه كإحياء الأرض ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾[1]. و﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتىٰ وأنه على كل شيءٍ قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾[2]. إذ نلاحظ هنا أن الإنسان المادي (أي البدن) عندما يصل إلى الغاية التي حددها الله تعالى، يطرأ عليه التبدل والتغيير، وهذا هو قول الله:

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً، فإذا أنتم منه توقدون ﴾[3].

فالآية الكريمة تؤكد أن الذي يقدر على إضرام النار في الشجر الأخضر - رغم التضاد الموجود - لهو قادر أيضاً على إحياء العظام وهي رميم. وبنفس المضمون تأتي الآية الكريمة ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾[4].

و﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسْرَهُمْ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾[5]. والمقصود في «تبديل الأمثال»، هو الخلق المتكرر، حيث ورد في الآية ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾[6] و﴿ كل يوم هو في شأن ﴾[7].

والمقصود بـ «الأمثال» هو ذلك المصطلح المستخدم في العلوم العقلية،

---

(١) ق: ١١.
(٢) الحج: ٥، ٦، ٧.
(٣) يس: ٧٨، ٧٩، ٨٠.
(٤) الواقعة: ٥٩، ٦٠، ٦١.
(٥) الإنسان: ٢٨.
(٦) ق: ١٥.
(٧) الرحمن: ٢٩.

أي «الاتحاد النوعي» والاختلاف الشخصي. باعتبار أن مثل الشيء، هو غير الشيء نفسه ولهذا لا يمكن الاستدلال بالآية ﴿ **أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاق العليم** ﴾[1] للرد على منكري الحشر، لأن «خلق مثلها» لا يعني إعادتها ثانية. إذن فالمقصود بـ «يخلق مثلهم» أو بـ «تبديل أمثالهم» هي التغييرات التي تجرى عليهم دون أن تخرج من إطار وجودهم الأصلي. وفي هذا السياق، نجد الكلام الإلهي أحياناً، يستبدل «مثل» بـ «عين» كما في قوله:

﴿ **أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾[2] و﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[3].

إذن فالمقصود بـ« مثل الشيء»، هو الشيء نفسه وهذا الاستخدام هو نوع من الاستعارات اللغوية. وخلاصة الأمر، أن جميع الآيات السالفة الذكر تؤكد أن الأجسام في حالة تغير دائم من حال إلى حال، حتى تصل إلى يوم القيامة وتلتحق بالأرواح ثانية. يقول الله تعالى ﴿ **وإذا القبور بعثرت** ﴾[4].

و﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور** ﴾ حيث استخدم «ما» للتدليل على الأجسام، وكذلك ﴿ **فإنما هي زجرة واحدة، فإذا هم بالساهرة** ﴾[5].

سير الأرواح إلى خالقها

على الرغم مما تحدثنا عنه، فإن الروح تتحرك نحو خالقها، والله تعالى يقول: ﴿ **من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان**

(١) يس: ٨١.

(٢) الأحقاف: ٣٣.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) الانفطار: ٤.

(٥) النازعات: ١٣، ١٤.

مقداره خمسين ألف سنة ﴾[1]. إذن فالروح، كالملائكة، تعرج إلى الله وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقىٰ الروح من أمرهِ على من يشاء من عبادهِ ﴾[2]. وفي آية أخرى يتحدث تعالى عن أهل السعادة، وأهل الشقاء فيقول: ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾[3] و﴿ للآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾[4]. وعن أهل الجنة يقول: ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأُتوا به متشابهاً ﴾[5]، أما عن أهل جهنم فيقول تعالى: ﴿ مأوئهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[6]، وقد قال جل وعلا أن أهل جهنم هم حطبها، وبهم يزداد سعيرها، وانطفاؤها يعني احتراق أهلها جميعاً.

---

(١) المعارج: ٣، ٤.

(٢) المؤمن: ١٥.

(٣) الأحقاف: ١٩.

(٤) بني إسرائيل: ٢١

(٥) البقرة: ٢٥

(٦) بني إسرائيل: ٩٧

الفصل السادس:

الصراط

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم** ﴾[1] و﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم، وقفوهم أنهم مسؤولون، مالكم لا تناصرون** ﴾[2].

في هذه الآيات، يخبرنا الباري عز وجل، أنه يهدي الظالمين وأزواجهم - أي شياطينهم - إلى جهنم. والمقصود بـ «أزواجهم» هو الشياطين، وهو ما يفهم من الآية الكريمة ﴿ **فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً** ﴾ إلى أن يقول ﴿ **إن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾[3].

إذن، وكما تشير هذه الآيات، فإن الصراط هو طريق يقع على جهنم أو في داخلها، ذلك أن الباري عز وجل يخبرنا هنا عن الـ «ورود» إليها

---

(١) النساء: ١٦٨، ١٦٩.

(٢) الصافات: ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥.

(٣) مريم: ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢.

والـ«نجــاة» منهـا. وفي آيــة أخرى يخبـرنـا القـرآن عن «الامتـلاء الحتمي» لجهنم:

﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هديها ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾[1].

وهذا الطريق الذي يقام على طول جهنم، هو ممر لكل الخلق، الصـالح منهم والمسيء، إذ ينجي الله المتقين منهم، ويتـرك الـظالمين إلى سعيـر النـار. والملفت أن كلمة «الظلم» تتكرر عدة مرات وكذلـك «الطغيـان»، مثل **﴿ الـذين طغـوا في البـلاد ﴾**[2] وهـو الإفـراط في الـظلم والاستكبار **﴿ فـأكثـروا فيهـا الفسـاد. فصب عليهم ربـك سـوط العـذاب، إن ربـك لبـالمـرصـاد ﴾**[3] و**﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾**[4].

إن الـظلم والتفـريط بحق النـاس، والتفريط بحق النفس أو في حق الله تعالى، إنما يحدث باتبـاع الشيطان وهـوى النفس، وتمتد جـذور ذلك في تعلق الإنسـان بالـدنيا وانخـداعه بـزينتها وبـالاوهام التي تشكـل بمجموعها مـا يسمى بـالتمـدن، وهي أوهـام لا حقيقـة لهـا، ويحـل ذلـك مـا يُسـألـوْن عنـه كمـا في **﴿ وقفـوهم أنهم مسؤولــون، مــالـكم لا تـنـاصـرون بــل هم اليــوم مستسلمون ﴾**.

وحول تفسير «أنهم مسؤولون» روي عن الإمام الصـادق (ص) بأن العبـد لا يخطو يوم القيامة خطوة قبل أن يسأل عن أربعة أشيـاء: عن شبابـه كيف عاشـه، وعن عمره كيف قضاه، وعن ماله كيف جمعه وكيف صرفه، وعن حبّنا نحن أهل البيت. ويـورد «القمي» في تفسيره روايـة عن الإمام الصـادق (ع) يقـول فيهـا أن الذي هم عنه «مسؤولون» هو ولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) السجدة: ١٣.

(٢) الفجر: ١١.

(٣) الفجر: ١٢، ١٣، ١٤.

(٤) النبأ: ٢١

وفي حديث شريف، يقول النبي (ص): إنّ الناس كلهم يدخلون النار، ثم يبدأون بالخروج منها حسب أعمالهم فأول من يخرج، يكون خروجه كضوء البرق، والثاني يخرج كما تهب الريح، والثالث كركض الحصان، والأخير كالسير على الأقدام.

وعن النبي (ص) أيضاً: إنّ النار تقول للمؤمن يوم القيامة «أعبر بسرعة، فنورك يكاد يخمد لهيبي». وعندما يسأل النبي (ص) عن آية ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾، يقول عندما يدخل الصالحون الجنة، تسأل مجموعة، مجموعة أخرى: ألم يعدنا ربنا بأن ندخل الجنة جميعاً؟ فتجيب المجموعة الأخرى، لقد دخلتم لكن النار كانت قد بردت.

الفصل السابع:

الميزان

يقول الباري عز وجل ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾[1].

في هذه الآيات يبين الله تعالى أن «الوزن» هو من الحقائق الثابتة يوم القيامة، ولعل المقصود بالجمع (الموازين) في عبارة ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾، و﴿ **من خفت موازينه** ﴾ هو عدد المرات التي يتم فيها الوزن، كما توضح هذه الآيات أن ثقل الوزن هو في الحسنات، وخفة الوزن في السيئات، رغم أن ظاهر الأمر يفترض أن يكون عكس ذلك، كما يبدو من قوله تعالى: ﴿ **والعمل الصالح يرفعه** ﴾[2] و﴿ **يرفع الله الذين آمنوا** ﴾[3] و﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين** ﴾[4].

إن ثقل وزن الأعمال الصالحة، وخفة وزن السيئة، كما بينها الباري عز وجل، يعود إلى بقاء الحسنات والأعمال الصالحة، وفناء الأعمال، السيئة ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾.

---

(١) الأعراف: ٨، ٩.
(٢) فاطر: ١٠.
(٣) المجادلة: ١١.
(٤) التين: ٥.

وفي آية أخرى يقول الله تعالى ﴿ **نضع الموازين القسط يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[1] إذ وصف الموازين بالقسط، وبين الفرق في الوزن بين الحسنات والسيئات.

ويروى عن أمير المؤمنين (ع) فيما يتعلق بـ ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ قوله أن المقصود بذلك الحسنات. فالحسنات والسيئات يجرى وزنها، فتكون الأولى هي الثقل في الميزان أما الثانية «فوزنها قليل» أما في «الاحتجاج» فورد عن أمير المؤمنين (ع) أن المقصود بذلك، هو زيادة الحسنات أو قلتها.

مما مضى يتضح معنى الآية التالية: ﴿ **أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾[2]، أي أن الأعمال إذا حبطت، فلن يظل مبرر لإقامة ميزان العدل الإلهي، وهذا الأمر يوضح لنا حقيقة مهمة وهي أن ميزان العدل يوم القيامة، يختص بالأعمال التي لم تحبط فقط، ومن هنا فإن الآية الواردة آنفاً، لا تتنافى مع هذه الآية ﴿ **فمن ثقلت موازينهُ فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون. تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون. ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين** ﴾[3].

إن هذا المبحث يساعدنا على إدراك معنى الروايات الواردة في هذا الشأن.

فقد ورد في الاحتجاج، أنه عندما سُئِل، الإمام الصادق (ع) من قبل الزنديق المشهور: هل توزن الأعمال؟ أجابه الإمام بالنفي، وبرر ذلك أن الأعمال ليست أجسام مادية، كما أن الذي يحتاج إلى وزن الأشياء، إنما هو

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) الكهف: ١٠٥.

(٣) المؤمنون.

الذي لا يعرف عددها أو وزنها، أما الباري عز وجل، فلا تخفى عليه خافية. فسأله الزنديق: إذن ما معنى «الميزان»؟، أجابه الإمام: يعني العدل، فسألهُ الزنديق مرة أخرى: إذن فما معنى عبارة ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ الواردة في القرآن؟ أجابه الإمام: يعني الذي يرجح عمله.

وفي «التوحيد»، ورد عن أمير المؤمنين (ع) أن المقصود بـ«**نضع الموازين القسط**»، إنما هو ميزان العدل الذي به يجرى تقييم أعمال كل العباد، وبه يأخذ لكل ذي حق حقه، ويجازى الظالم والغاصب.

وفي «الكافي» ورد أن الإمام الصادق (ع) سئل عن ﴿ **ونضع الموازين القسط يوم القيامة** ﴾ فأجاب أن الموازين القسط هم الأنبياء والأوصياء. وفيما تقدم من بحث، نجد الدليل على كلام الإمام (ع).

ويروي صاحب الكافي عن الإمام السجاد (ع) أن ميزان العدل الإلهي لا يقام للمشركين ولا تفتح صحائف أعمالهم، بل يُرمَون في جهنم جميعاً، ويؤكد الإمام أيضاً، أن ميزان العدل الإلهي لا يقام وصحائف الأعمال لا تفتح إلا للمسلمين.

الفصــل الثامن :

صَحيفة الأعـمَال

يقول الله تعالى :

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقِهِ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقيه منشوراً . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليومِ عليك حسيباً ﴾[1].

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين، أن «طائر» الإنسان، هو عمله الـذي قام به في حياته، وهو مثبت وملازم للإنسان، ولذلك يعبّر عنه القرآن الكـريم بـ «في عنقِهِ». فجميع أعمال الإنسان، سواء السيء منها أو الحسن، يجـري تسجيلها، دون أن يشعـر بذلـك في الدنيـا. ذلك أن حـواس الإنسان تحس بمـا هو ظـاهر ومكشوف من الأحداث والحركات والأعمال، أما باطن الأمور، فيدركها من خلال الآثار والعلامات الدالة عليها.

أمـا في النشأة الأخـرى (الآخرة) فـإن بواطن الأمـور وخفـايـاهـا، تتكشف جميعها حيث **﴿ برزوا لله جميعاً ﴾** ومن هنا وصف القـرآن، الطائـر، بالكتـاب الذي يفتحه الإنسـان ويقرأ ما في داخله.

---

(١) بني إسرائيل: ١٣، ١٤.

يقول الله تعالى: ﴿ **أحصيه الله ونسوه** ﴾[1].

كما يقول: ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** ﴾[2]. وهنا نلاحظ استخدام «أبدأ» و«أحصاه». وهي تخص أعمال الإنسان، لأن صحيفة الأعمال، لا تعني أنها قائمة تدرج فيها الأعمال، بل أن الأعمال تتجلى أمامهم بذاتها وحقيقتها.

وفي هذه الآية يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[3].

كما يقول تعالى: ﴿ **وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** ﴾[4]، وآيات أخرى تؤدي نفس المعنى مثل ﴿ **يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى** ﴾[5]. و ﴿ **ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر** ﴾[6].

لقد أسلفنا الحديث عن حقيقة أن يوم البعث والنشور محيط بجميع مراتب الوجود ودرجاته. وكما أن الأعمال تتجلى، فإن حقيقتها تتجلى أيضاً.

يقول الله تعالى: ﴿ **وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون** ﴾[7] و«الكتاب» المذكور في هذه الآية، هو ذلك المتضمن أعمالهم. كما يقول أيضاً: ﴿ **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾[8]. وهذا الكتاب هو ﴿ **الكتاب المكنون** ﴾ الذي سُجِّل فيه ما حدث وما يحدث وما سيحدث.

وقد ورد في الأخبار. أن نسخاً تأخذ من هذا الكتاب، ومنه أيضاً تؤخذ الأعمال، وهو كتاب يضم حقيقة الأعمال، وهو الحجة والمرجع لباقي الكتب

---

(١) المجادلة: ٦.

(٢) الأنعام: ٢٨.

(٣) الزلزلة: ٦، ٧، ٨.

(٤) الأحقاف: ١٩.

(٥) الفجر: ٢٣.

(٦) القيامة: ١٣.

(٧) الجاثية: ٢٨.

(٨) الجاثية: ٢٩.

ولعله هو المذكـور في الآية الشـريفة: ﴿ **وأشـرقت الأرض بنور ربهـا ووضع الكتاب** ﴾[1].

ورد في «الكافي» عن الإمام جعفر الصادق (ع)، ضمن أحد أحاديثه حول اللوح المحفوظ، أن اللوح هو الكتـاب المكنون الـذي تؤخذ عنـه باقي النسـخ. والاستنسـاخ هنـا، يعني نقـل الشيء من مصـدره الأصلي، وهـذا معنى الكـلام الإلهي: ﴿ **إنـا كنا نستنسـخ ما كنتم تعملون** ﴾[2]. كمـا ينقل «العيـاشي» في تفسيره، عن الإمام الصادق (ع) أن كتاب الإنسـان (صحيفة أعمـاله)، تعـطى له يوم القيامة فيقال له: إقرأ! وهنا يسأل الراوي، الإمام (ع): وهـل يتذكـر الإنسان كل ما هو موجود في صحيفته، فيجيب الإمام: الله يذكره بها، فيتذكر كـل رمشة عين أو خطوة قدم، أو قول أو عمل، وكأنه قام بها في تلك اللحظة، ولهذا يقول الإنسان حينذاك: ﴿ **يا ويلتنا مـا لهذا الكتـاب لا يغادر صغيـرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾[3].

وفي نفس التفسيـر روايـة أخرى عن الإمـام الصـادق (ع) أيضـاً، تحمـل مضموناً مقارباً لمـا جاء في الـرواية الآنفـة الذكـر. والجديـر بالمـلاحظة هنـا أن الإمام يفسر في هذه الرواية، مفردة «القراءة» بمعنى «التذكـر». الموضـوع الآخر هو أن الله تعالى يقول: ﴿ **نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾[4] وهـذا يعني أن ما يحصىٰ على الإنسـان ويُسجَل في كتـابه، هي أعمـاله وأفعـاله التي يرتكبها، إضافة إلى الآثار المترتبـة على هذه الأعمـال، وفي النتيجة، فـإن المحاسبة تكون على جميع ذلك، وعلى أساس هـذا المفهوم يتـوضح لنـا معنى الآية: ﴿ **ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر** ﴾[5].

---

(١) الزمر: ٦٩.
(٢) الجاثية: ٢٩.
(٣) القيامة: ١٣.
(٤) يس: ١٢.
(٥) القيامة: ١٣.

ويورد «القمي» في تفسيره، رواية عن الإمام الباقر (ع)، حول كلمتي «قدم» و «أخَرَ» الواردين في الآية السابقة، أن المقصود بها هي ما فعل بنفسه من خير وشر، وكذلك، ما ترتب على فعله فيما بعد، من آثار إيجابية أو سلبية، وأن الحساب يتم عليها جميعها، فإن كان قد سن سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها، فيحصل هو على أجر، بمقدار ما يحصل عليه المتبع لتلك السنة الحسنة.

بعد آية ﴿ **ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾[1] يتبعها الباري عز وجل بقوله: ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾[2] وهنا يتضح أن اللوح المحفوظ (الذي عبّر عنه القرآن هنا بالإمام المبين) هو أيضاً مرجع وحكم في محاسبة العباد، كما هي صحائف أعمالهم. كما يتضح أن المقصود بـ «الكتاب» في آية ﴿ **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق** ﴾[3] هو نفسه اللوح المحفوظ، لأن الكتاب وُصِفَ هنا بالإمامة، أي التابعية، وفي الآية السالفة، وصفه القرآن بهذه الصفة، حيث منه تؤخذ الأعمال. . . إذن فالإثنان، لها معنى واحدٌ.

وفضلاً عن توضيح العديد من صفات هذا الكتاب، فأن القرآن وضّح لنا حقيقة مهمة وهي أن العباد يأخذون كتابهم بطريقتين، تبعاً لصنف العباد، فقد جاء: ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفىٰ منكم خافية. فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه. إنني ظننت أني ملاق حسابيه** ﴾[4]. . إلى قوله ﴿ **وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه** ﴾[5].

فالمقصود باليمين والشمال هنا كما يبدو، طرفا الإنسان من حيث تفاوتهما في القوة، على أساس حقيقة أن اليد اليمنى أقوى من اليسرى، أو طرفا السعادة

---

(١) يس: ١٢.

(٢) يس: ١٢.

(٣) الجاثية: ٢٩.

(٤) الحاقة: ١٨، ١٩، ٢٠.

(٥) الحاقة: ٢٥، ٢٦.

والشقاء. والمؤكد أن المقصود ليس اليدان (اليمين واليسار)، كما تصوره بعض الرواة والمحدثين الذين يأخذون بظاهر الآية، ذلك أن الله تعالى لم يقلْ «أوتى كتابه ليمينه أو لشماله» بل قال: بيمينه وبشماله. والباء هنا سببية تفيد الواسطة، ولعل الآية الشريفة التالية خير دليل على ما نقول ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً. وينقلب إلى أهله مسروراً. وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعى ثبوراً** ﴾[1]، إذ ورد فيها «وراء ظهره» بدل «بشماله» وهذا دليل على أن المقصود هو ليس اليد اليسرى، إذ لا يمكن أن يعني تعبير «وراء ظهره» ذلك.

والدليل الآخر، هو الآية الشريفة: ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلاً ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً** ﴾[2]، إذ نلاحظ أن القول الإلهي جاء «بإمامهم» وليس «لإمامهم» بينما تستخدم آيات أخرى «اللام» بدل «الباء» عندما لا يراد معنى الواسطة، فمثلاً ﴿ **كل أمة تدعى إلى كتابها** ﴾[3] ولم يقل الله تعالى: «بكتابها». وخلاصة الأمر أن «الدعوة بالإمام» هي غير «الدعوة إلى الكتاب».

وبعد أن يدعو الله تعالى، كل أناس بإمامهم، يأتي على تفاصيل ذلك فيقول تعالى أن مجموعة من هؤلاء يؤتون كتابهم بيمينهم، إذن، فهذا اليمين، هو ذاته الإمام الحق الذي يدعي به هؤلاء ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ وبدل أن يقول الله بأن المجموعة الأخرى تؤتى كتابها بشمالها، جاء القول الإلهي: ﴿ **من كان في هذه الدنيا أعمىٰ فهو في الآخرة أعمى وأظَل سبيلاً** ﴾[4]. ومن تغيير السياق هذا، ندرك أن إعطاء الكتاب بواسطة اليمين، يوم القيامة، يعني ذلك النور المضيء، فالله يقول: ﴿ **يسعى نورهم بأيديهم**

---

(١) الانشقاق: ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١.

(٢) بني إسرائيل: ٧١، ٧٢.

(٣) الجاثية: ٢٨.

(٤) بني إسرائيل: ٧٢.

وبإيمانهم﴾[1] و﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾**[2]. وهنا يتبين أن النور، هو ذلك الإمام، والمقصود بمناداة الناس به، هو التحاق كل مجموعة بإمامها.

والحديث في هذا الموضوع يطول كثيراً، ولا مجال له في هذا البحث، لكن الخلاصة هي أنَّ المقصود بـ «اليمين» و «الشمال»، يمكن أن يكون السعادة والشقاء، وليس اليد اليمنى واليسرى. ولعل في سورة الواقعة ما يدلل على ما نقول ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾**[3] و﴿ **أصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾**[4]، ومرة أخرى يتحدث عنهم القرآن الكريم بعبارات أخرى ﴿ **فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة﴾**[5]. ثم تأتي الآيات الشريفة لتوضح ذلك أكثر ﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من أصحاب اليمين. وأما إن كان من المكذبين الظالمين. فنزلٌ من حميم. وتصلية جحيم. .﴾**[6]. إذ جاء «المكذبين الضالين» بدل «أصحاب الشمال». ومن هنا ندرك أن أصحاب الشمال هم أهل الشقاء، والمكذبون للحق، والضالون. ويبدو أن هذه الآية فيها إشارة إلى ﴿ **ومن خفت موازينه. . . ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾**[7] إذ هي إشارة إلى الذين كذَّبوا وضلّوا واختاروا الشقاء لأنفسهم.

لقد قلنا فيما مضى أن هذه الآية تخصُ أهل الشقاء من أتباع الأديان الضالين أو الناكثين لعهد أئمة الحق أما الكفار المنكرين لله تعالى والأديان، فلا تشملهم هذه الآية. لأن الله لا يضع لهؤلاء ميزاناً أو قيمة، لذلك، لا يوجد لهؤلاء، كتاب، ولا حساب، بل يأخذون طريقهم إلى العذاب مباشرة.

والخلاصة، أن أصحاب الشمال هم أهل الشقاء والضالون ـ ولهذا فإنهم يقولون ـ كما ينقل عنهم الباري عز وجل ـ : ﴿ **ما أغنى عنّي ماليه هلك عني**

---

(1) الحديد: ١٢.
(2) الحديد: ١٩.
(3) الواقعة: ٢٧.
(4) الواقعة: ٤١.
(5) الواقعة: ٨، ٩.
(6) الواقعة: ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤.
(7) المؤمنون: ١٠٣ ـ ١٠٦.

سلطانيه ﴾ إذ أن ذلك (المال والسلطان) حرفهم عن الحق، رغم اعترافهم وإقرارهم به.

إذن، فكل من الفريقين يدعى بإمامه، فيلتحق به، وبواسطته يؤتى كتابه. والالتحاق بالإمام هو ما ذكرته الروايات بـ«السعادة» و«الشقاء» الذاتيين، والذي سيأتي الحديث عنه فيما بعد.

إن أهل الشقاء، يتلقون كتابهم بشمالهم، ومن خلف ظهورهم، لأن أئمتهم أمامهم، لكن وجوههم منقلبة إلى الوراء، والله تعالى يقول حول فرعون: **﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾**[1] كما يقول: **﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً ونردّها على أدبارها ﴾**[2] وكذلك يقول: **﴿ قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾**[3]. وقد ذكرنا فيما مضى أن النور هو الإمام الحق.

إن الإنسان، بوجوده المادي الدنيوي، وبشكله الذي خلقه الله تعالى، يكون وجهه إلى الإمام، وله ظهر وطرف أيمن وأيسر. وعندما يختار الإنسان طريق الشقاء والضلال، ويتبع هواه ورغباته، فهو في الواقع، يشيح بوجهه عن الحق، وعندما يقف بين يدي ربه، يوم القيامة ويبدأ الحساب، يحشر هذا الإنسان، ووجهه إلى الوراء، وكالأعمىٰ، فلا يرى شيئاً، وهو مذهولاً لا يدري إلى أين يسير، وماذا يفعل، وماذا سيواجه.

إن الإمام الحق، والذين يدعون بواسطته، يملك إشرافاً وهيمنة قاهرة على الإمام الباطل ومجموعة، والله تعالى يقول: **﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾**[4] حيث تطلق الآية اسم «الإمام» على الكتاب الذي يضم كل الأمور، بما في ذلك الشقاء

---

(١) هود: ٩٨.

(٢) النساء: ٤٧.

(٣) الحديد: ١٣.

(٤) يس: ١٢.

والسعادة، والسيء والصالح، والله جل وعلا يقول أيضاً: **﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾**(1)، وعلى أساس هذه الآية، فإن «الإمام» الذي هو «الكتاب»، يتولى القضاء بحق كلا الفريقين، الأشقياء والسعداء، وهو الشاهد عليهم جميعاً. وهذا لا يتنافى مع ما قلناه سابقاً حول الفرق بين «الدعوة إلى الكتاب» و «الدعوة بالإمام». ذلك أن الله تعالى لم يصف صحائف الأعمال بـ «الإمامة». بل وصفها بالاقتران والتابعية، فقال: **﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره ﴾**(2) بينما وصف «اللوح المحفوظ» فقط بالإمامة، باعتبار أن الأعمال تؤخذ منه. إذ أن صحيفة الأعمال، تؤخذ من هذا اللوح.

ويجب التذكير هنا أن الله تعالى، فسرَّ الإمامة، بـ «الولاية» في العديد من الآيات، لكن استخدم «الولاية» فقط، عندما تحدث عن ذاته جل شأنه، لأن الإمامة تتضمن وحدة النوع بين الإمام والمأموم. وخلاصة الأمر أن الإمام الحق، هو ولي المؤمنين، والإمام الباطل، ولي الكافرين.

وبدرك هذه الحقائق، سنحل عقدة الكثير من معاني الأحاديث التي تقول أن أصحاب الولاية، يتولون القضاء بين الناس يوم القيامة.

يقول الله تبارك وتعالى: **﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة، والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾**(3) و «السابقون المقربون» هم أولئك العباد «المخلصون» الذين تحدثنا عنهم ضمن موضوع النفخ في الصور، و «الإحضار» و «الميزان». فأمثال هؤلاء يستثنون من إعطائهم كتابهم، كما يستثنون من الفزع وغيره.

وعلى هذا، فإن حكم «إعطاء الكتاب وصحيفة الأعمال» يجري على الذين يرتكبون سيئات، أو حسنات، ويستثنى منه فريقان، الأول: العباد

---

(1) الجاثية. 29.
(2) بني إسرائيل: 13.
(3) بني إسرائيل: 13.

المخلصون والثاني: المعاندون والمنكرون الذين سلف الحديث عنهم.

يقول الله تعالى: ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائرة في عنقه** ﴾[1] وهذا يشمل الذين عملوا حسنات وسيئات وأما «المخلصون» الذين بلغوا في حسناتهم مراتب عليا، وكذلك الذين حبطت أعمالهم، كمكذبي الأنبياء ومنكري يوم القيامة. فهم لا يتعرضون للحساب ولا يعطون كتابهم يوم القيامة.

واستمراراً لنفس الآية السابقة نقرأ: ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتاباً منشوراً** ﴾[2]. ويحتمل أن يكون هذا الكتاب، هو غير «الطائر» الذي يعلّق في عنق الإنسان (المقترن به) ولو كان هذا الكتاب هو نفسه «الطائر»، لجاءت الآية: ﴿ **ونخرجه كتاباً** ﴾ بينما النص جاء ﴿ **ونخرج له كتاباً** ﴾. وسياق الآية هذا يتفق مع آيات أخرى مثل ﴿ **وإذا الصحف نشرت** ﴾[3]. وبعدها الآية ﴿ **إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾[4]. فمن هذه الآية، يتضح لنا أن «الكتاب» و «طريقة قراءته» يختلفان عما هو معروف في الحياة الدنيا.

يقول الله تعالى: ﴿ **يُنَبَّؤُ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر** ﴾[5]. وهذه الآية تتحدث عن تفاصيل أعمال «الإنسان التي ارتكبها في حياته، والتي يُذَكّرُ بها يوم القيامة. أما الآية ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة** ﴾[6] فتتحدث عن وضع الإنسان بشكل إجمالي وعام، وتبين أن التفاصيل يعرفها الإنسان بنفسه. وقد تحدثنا فيما مضى عن كيفية قراءة الإنسان لكتابه... والله أعلمُ.

---

(١) بني إسرائيل: ١٣.
(٢) بني إسرائيل: ١٣.
(٣) التكوير: ١٠.
(٤) بني إسرائيل: ١٤.
(٥) القيامة: ١٣.
(٦) القيامة: ١٤.



الفصل التاسع:

الشهداء في يوم البعث

يقول الباري عز وجل عن الشهداء: ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾[1]. وفي آيات أخرى عديدة، أطلق القرآن الكريم صفة الشهداء (بمعنى الشاهدين) على عدة مجموعات، باعتبارهم يشهدون على الأعمال في يوم القيامة.

إن الشّهادة على الشيء، هي إدراكهُ عن طريق الحضور والرؤية، وهذه هي مرحلة استلام الشهادة والحصول عليها، أما المرحلة الثانية، فهي تأييد وقوع ذلك الشيء وتسمى مرحلة «أداء الشهادة». وواضح أن الشهادة على الأعمال، في يوم القيامة. لا يقتصر على ظواهر الأمور والحوادث والأعمال، بل هي شهادة على بواطنها وخفاياها، من حيث الطاعة والمعصية، أو السعادة والشقاء، ذلك أن الحكم يستند إلى تأييد الشهداء، والذي يقضي هو «أحكم الحاكمين». من هنا فإن الشهادة تأتي على حقائق الأمور وبواطنها.

إن الإدراك الكامل لحقائق الأمور، أمر لا يبلغه، إلا الذين يطلعون على جذور الأمور ومنشأها، وكذلك يطلعون على النيات والخفايا والدوافع. ومن

---

(١) الزمر: ٦٩.

هنا، فإن الشهادة في يوم القيامة تمثل تكريماً وتجليلاً لمقام الشاهد ﴿ **لا تكلم نفس إلا بإذنه** ﴾. كما أنها محصورة بأولئك الذين حظوا في الدنيا بمنزلة تؤهلهم للاطلاع على الخفايا والنوايا. يقول الباري جل وعلا ﴿ **لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً** ﴾[1] والصواب، هو عكس الخطأ. كما يقول تعالى ﴿ **إلا من شهد بالحق وهم يعلمون** ﴾[2]. إذن فالشهادة في ذلك اليوم لا تقوم إلاّ للذين نزهت أعمالهم من كل خطأ وزلل.

من جانب آخر، فإننا لو أمعنا النظر في قدرة حواس الإنسان وقواه الظاهرية، لرأيناها عاجزة عن إدراك بواطن الأمور والأعمال، حتى لو تعاملت معها بشكل مباشر، فضلاً عن الغائبين. والبعيدين عن دائرة إدراكها. لأن الاطلاع على خفايا الغير، وهم في غياب عن الشاهد، أمر مستحيل إذا افترضنا أن «اطلاعه» يتم بالحواس الظاهرية المعروفة. لكن هذا الأمر سيكون قابلاً للإقناع، إن إدراك الشاهد لبواطن الأمور والأعمال، يتم بقوة، هي ما وراء قدرة الحواس الظاهرية، قوة يمكنها الاطلاع على النوايا والخفايا، للغائب والحاضر على حد سواء. هذه القوة هي في الواقع نور غير مادي، لا يحتاج إلى ما يحتاجه النور العادي، من مستلزمات الحال والزمان والمكان، بل هو نور يمكن بواسطته رؤية باطن الإنسان ونواياه، وتمييز «الطيب» من «الخبيث»، و«الطاهر» من «غير الطاهر».

يقول الله تعالى: ﴿ **كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدريك ما عليون. كتاب مرقوم يشهده المقربون** ﴾[3] وكذلك: ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدريك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين** ﴾[4]. وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أن أصحاب اليمين

---

(١) النبأ: ٣٨

(٢) الزخرف: ٧٦.

(٣) المطففين: ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١.

(٤) المطففين: ٧، ٨، ٩، ١٠.

وأصحاب الشمال، يؤتون كتابهم كل بواسطة إمامه. يقول الله تعالى: ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[1]. وهذه الآية، لا تخصّ في خطابها فريق المنافقين، بل تخاطب الناس جميعاً. ومن هنا فإن أعمال المؤمنين أيضاً ستخضع لـ «الرؤية» من قبل الله تعالى ورسوله والمؤمنين. كما أن «المؤمنين» الذين وضعتهم الآية إلى جانب الله تعالى ورسوله (ص) كناظرين للأعمال، هم بالتأكيد فريق خاص من المؤمنين، يتميزون عن غيرهم. كما نفهم من هذه الآية، أن «رؤية» أعمال الناس من قبل النبي (ص) والمؤمنين، إنما تتم على أساس ما ينبىء الله تعالى الناس، بما كانوا يعملون.

ينقل علي بن إبراهيم القمي في تفسيره. رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، مفادها أن حسنات العباد وسيئاتهم تعرض على رسول الله (ص) كل صباح، ولهذا يحذر الإمام (ع) العباد من ارتكاب المعاصي ويدعوهم إلى الخجل من أن تعرض معاصيهم على النبي (ص). أما «العياشي» فينقل رواية عن الصادق (ع) حول آية ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾[2]. يقول فيها أن المقصود بـ «والمؤمنون»، هم الأئمة. وهناك روايات عديدة أخرى وردت في كتب التفسير والحديث حول هذا الموضوع.

وخلاصة الأمر، أن مرحلتي التلقّي والحصول على الشهادة وأداءها، والجزاء على أساسها، كل ذلك يتم استناداً إلى الأعمال ذاتها، وهذه الأعمال هي التي تنطق وتتحدث عن نفسها. يقول تبارك وتعالى: ﴿ **وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون. ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون** ﴾[3].

---

(١) التوبة: ١٠٥.

(٢) التوبة: ١٠٥.

(٣) الزمر: ٦٩، ٧٠.

الشهداء، مجموعات مختلفة، ومراتب عدة، فالمرتبة الأولى يحتلها الأولياء والمقربون، مثل الأنبياء والصالحون، والله تعالى يقول: ﴿ **وجيء بالنبيين والشهداء** ﴾. ولعل الفصل بين النبيين والشهداء هنا، هو لتكريم مقام الأنبياء. كما يقول جل وعلا ﴿ **يوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون** ﴾[1]. فالأمة هنا، هي مجموعة من الناس، وعندما يقرن الحديث عن أمة، بنبي أو زمان أو مكان، فإنها تتميز عن الأمم الأخرى. وبما أن «الأمة» في الآية السابقة لم تقرن بشيء آخر، فإنها تعني هنا، جميع الأمم، وتشمل في خطابها، ولي وشهيد كل أمة من الأمم. رغم أنه قد يوجد داخل أمة كل نبي عددٌ من الأولياء، فالله تعالى يقول: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾[2].

وعلى أساس ما قلناه سابقاً حول معنى الشهيد، يتضح لنا أن هذا المقام (الشهادة) لا يمنح لكل أفراد أمة محمد (ص)، بل إن المقصود بذلك، بعض أفراد الأمة، رغم أن ظاهر الآية، يخاطب كل أفرادها. ولعل السبب هو أن هذه المجموعة الخاصة تنبثق من هذه الأمة.

هذا الأسلوب في الحديث، أمر طبيعي ومتداول، فالله تعالى يقول في آية أخرى: ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم** ﴾[3] إلا أن وصف «الأشداء» لا يشمل كل من هو مع النبي (ص)، رغم أن ظاهر الآية هكذا. إذ من المؤكد أن المقصود بذلك، بعض أتباع النبي، خاصة وأن هناك إجماع بأن بعض الذين كانوا مع النبي، هم من المنافقين

---

(١) النحل: ٨٤.
(٢) البقرة: ١٤٣.
(٣) الفتح: ٢٩.

والفاسقين، ولا يمكن لصفة «الأشداء» أن تنطبق عليهم. وهناك حالات مشابهة عديدة، يوجه فيها الخطاب إلى العموم بينما المقصود، هو مجموعة خاصة منهم.

على هذا، فإن شهداء الأمة، مجموعة خاصة، تشهد على الناس، أما رسول الله (ص)، فهو بدوره شاهد على أفرادها. أي أن هذه المجموعة، تمثل حالة وسطية بين الأمة ونبيها، كما ورد في الآية السالفة الذكر. وفي آية أخرى يقول عز وجل: ﴿ . . . **هو اجتبيكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سميكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** . . . ﴾[1]. فهذه الآية أكثر صراحة في توضيح أن شهداء الأمة، هم مجموعة خاصة. وفي عبارة «هو سميكم المسلمين» إشارة إلى دعاء إبراهيم (ع) وابنه إسماعيل (ع) عند بناء الكعبة: ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾. وبما أن دعاء إبراهيم، هو بحق إسماعيل وأبنائه، وعموماً أهل مكة، فإنما يشمل بالنهاية، قريش، لكن سياق ومضمون الدعاء يدل على أن المقصود ليس قريش كلها. بل مجموعة خاصة، هي تلك التي تتمتع بالطهارة والهداية والوفاء بالعهد الإلهي، وباقي العهود، والإيمان بالنبي (ص).

وما ورد في الآية الشريفة السالفة الذكر، هو ذلك التفسير الوارد في الأخبار المنقولة عن أهل البيت (ع). ففي «الكافي» وتفسير العياشي ورد عن الإمام الباقر (ع) أن أهل البيت هم أمة وسط، وهم شهداء الله على العباد وحججهُ في الأرض والسماء. وفي «شواهد التنزيل» ورد عن أمير المؤمنين (ع) أن المقصود بـ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ هم «نحن»، أي أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأن رسول الله (ص) شاهد عليهم، وهم بدورهم شهداء

---

(١) الحج: ٧٨.

الله على العباد وحجته في الأرض وأنهم الذين قال عنهم الله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناهم أمة وسطاً** ﴾[1].

ويروى عن الإمام الباقر قوله أن الشهداء على الناس، لا يمكن إلا أن يكونوا الأئمة والأنبياء (ص)، أما أفراد الأمة الآخرين فلا يمكن أن يكونوا شاهدين، من قبل الله تعالى، لأن بين أفراد الأمة من لا تقبل شهادتهم في الدنيا، وفي أبسط الأشياء، وفي تفسير العياشي، ورد عن الإمام الصادق (ع) أن المقصود بآية ﴿ **لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ ليس كل أهل القبلة (المسلمين)، لأن هناك من هؤلاء، من لا تقبل شهادته حتى على «صاع من التمر» ويتساءل: كيف يمكن أن تقبل شهادة مثل هؤلاء، على أعمال العباد، يوم القيامة؟، ويستطرد الإمام (ع) أن المقصود بهذه الآية، هم الأئمة الذين استجيب بحقهم دعاء إبراهيم (ع)، وهم الأمة الوسط و﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾. وهناك أحاديث عديدة بهذا الشأن.

وهكذا يتوضح معنى الآية الكريمة: ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[2]، وحيث أن رسول الله (ص) لا يكون شاهداً على أفراد الأمة مباشرة، بل يشهد على شهداء الأمة، فإن المقصود بـ﴿ **وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[3] هم شهداء الأمم، وليس أفراد الأمة أنفسهم، وهؤلاء الشهداء هم الذين يشهد عليهم رسول الله (ص).

وهناك آية أخرى، أكثر صراحة في توضيح هذه الحقيقة ﴿ **ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء** ﴾[4] وتأتي صراحتها في أنها عبّرت عن استقدام شهداء الأمم للشهادة يوم القيامة بكلمة «نبعث»، أما عند الحديث عن رسول الله (ص) فالقرآن يستخدم كلمة «وجئنا

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) النساء: ٤١.

(٤) النحل: ٨٩.

بك». كما يستخدم القرآن الكريم عبارة «من أنفسهم» عند الحديث عن شهداء الأمم. وهذه الآيات تدل كلها على أن رسول الله (ص) شاهد على الشهداء، وليس على كل أفراد الأمة. كما أنه شاهد على شهداء الأمم الأخرى أيضاً.

يقول القمي حول عبارة «شهيداً على هؤلاء»، أن المقصود بـ «هؤلاء» ـ هم الأئمة ـ ورسول الله شهيد على الأئمة، وهؤلاء بدورهم شهداء على أفراد الأمة.

ويورد صاحب «الاحتجاج» حديثاً عن الإمام علي (ع) حول أحوال أهل المحشر فيقول أن الأنبياء يُبعثون في ذلك اليوم ويُسألون عن أداء الرسالة التي حُمّلوا بها، فيجيبون بأنهم بلّغوا الرسالة الإلهية لأممهم ـ وأدوا مسؤوليتهم. ثم يأتي دور الأمم، فتُسأل عن رسالات الأنبياء، فتنكر إبلاغ الرسالة، كما ورد في الآية الكريمة ﴿ **فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين** ﴾، فتقول الأمم ﴿ **ما جاءنا بشير ولا نذير** ﴾، وهنا يطلب الأنبياء، رسول الله محمد (ص) للشهادة، فيشهد على صدق جوابهم، وكذب ادعاء المنكرين من الأمم، فيقول لكل أمة: نعم، فقد جاءكم بشير ونذير وبلغكم رسالة الله. والله على كل شيء قدير. أي أن الله قادر على أن يجعل جوارحكم تنطق فتشهد على أن الأنبياء بلغوكم رسالات الله. وهكذا فإن رسول الله (ص) يكون شاهداً على الأنبياء، والله تعالى يخاطبه بالقول ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[1].

ينقل العياشي في تفسيره، حديثاً عن أمير المؤمنين (ع) يصف فيه يوم القيامة، فيقول إن جميع الخلائق يجمعون في مكان واحد، ليجرى سؤالهم عن أعمالهم، ولن يستطيع أحد الكلام إلا من يأذن له الله تعالى ليقول صواباً، ثم يبعث الله الأنبياء ليسألهم أيضاً، وهذا هو معنى الآية ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾. إذن فرسول الله (ص) هو الشاهد

---

(١) النساء: ٤١.

على الشهداء، وهؤلاء هم الأنبياء. وقد أسلفنا الحديث، عن إنكار الأمم، لرسالات الأنبياء.

وهناك مجموعة أخرى من الشهداء، هي الملائكة ﴿ **الذين يسجلون الأعمال** ﴾، والله تعالى يقول: ﴿ **وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عملٍ إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه** ﴾[1]. وكذلك يقول: ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقىٰ المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد. . . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾[2].

كما يقول أيضاً ﴿ **وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون** ﴾[3]. وآيات أخرى تشير إلى شهادة الملائكة، وأعضاء الإنسان وجوارحه.

يقول الله تعالى في هذا الموضوع: ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾[4]. وأيضاً ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون. حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون. وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرديكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾[5] وسياق هذه الآيات، يدل على

---

(١) يونس: ٦١.
(٢) ق: ١٦ - ٢١.
(٣) الانفطار: ١٠ - ١٢.
(٤) يس: ٦٥.
(٥) فصلّت: ١٩ - ٢٣.

أنها تخصُ أهل النار. ولهذا فإن شهادة الأعضاء والجوارح إنما تخص أهل النار فقط دون أهل الجنة.

إن موضوع شهادة أعضاء أهل النار وجوارحهم على ذنوبهم يمكن أن تكون دليلاً وشاهداً آخر على أن الكافرين، هم أيضاً مكلفون بفروع الدين وأحكامه، كما أن جلود أهل النار هي التي تشهد عليهم، ولهذا فإنهم يسألونها عن سبب شهادتها. ذلك أن الجلود أقرب إلى عالم المادة، أما الأسماع والإبصار، فهي أبعد عن عالم المادة، وأقرب إلى الفهم والإدراك.

إن آية ﴿ **قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء** ﴾ إنما هي جواب الجوارح والأعضاء لأصحابها، ولم تستخدم الآية كلمة «شهادة»، بل كلمة «نطق»، وهذا تم بأمر من الله. ولهذا فإن لوم الجوارح ومعاتبتها على شهادتها، كوجود مستقل، حر التصرف، أمر لا معنى له. لأن نطق كل ناطق، وحديث كل محدث، إنما هو من الله تعالى، وليس هناك أي موجود، يتمتع بالاستقلالية عن قدرة الله وإرادته، ولهذا، فإن سياق الآية يستمر ﴿ **وهو الذي خلقكم أول مرة وإليه ترجعون** ﴾ أي أنه بداية وختام كل الأشياء، وبإرادته وأمره تتم كل الظواهر، وهو العالم بكل شيء، ولا يغيب عنه شيء. وبما أن إخفاء أي أمر، يتم بوسيلة ما، وكذلك كشفهُ أو الإطلاع عليه، فإن باقي الآية يأتي: ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم** ﴾ أي أنكم لم تستطيعوا إخفاء ذنوبكم التي ارتكبتموها بجوارحكم، لا لأنكم لم تحسبوا للجوارح حسابها، ولم تحذروا شهادتها، بل لأنكم اعتقدتم أن الأشياء مستقلة عن الله تعالى، وأن الله غير مطلع عليها. بينما الحقيقة هي أنَّ أعضاء الإنسان وجوارحه، هي كمين إلهي، وأداة لمراقبة العباد. وأن اعتقادكم الخاطىء جعلكم تتصورون أن الله غافل عن كثير مما تعملون هذا الخطأ، هو الغفلة بعينها، عن حقيقة أن الله عالم بكل شيء، وشاهد على كل ما يفعل الإنسان ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرديكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾[1].

---

(١) فصلت: ٢٣.

وهنـا يجب الانتباه إلى أمرين هامين، الأول: أن المبـدأ العام القـائل أن العلم والقدرة وكل كمالات الوسائط هي نفسها علم الله تعالى وقدرته وكمالاتـه، له في القرآن، القرآن له فروع عديدة، وقد وردت لـه إشارات عـدة في القرآن، فمثلاً يقول الباري عـز وجـل حـول العلم: ﴿ **لا يعـزب عنـه مثقـال ذرة في السمـوات ولا في الأرض ولا أصغـر من ذلـك ولا أكبـر إلا في كتـاب مبين** ﴾[1]. كما يقول تعـالى: ﴿ **أم يحسبون أنـا لا نسمع سرهم ونجويهم بلى ورسلنا لديهم يكتبـون** ﴾[2]. وكذلـك يقول: ﴿ **ولقـد خلقنـا الإنسـان ونعلم مـا توسـوس به نفسـه ونحن أقرب إليـه من حبـل الوريـد إذ يتلقى المتلقيـان عن اليمين وعن الشمال قعيـد** ﴾[3] وآيات أخرى عديـدة في هـذا المعنى.

مما سلف، يتبين أن علم الباري تعالى وإطلاعه على كل الأمـور، يتحقق بتسجيلها في اللوح المحفوظ، ثم يواجه بها العباد كوقائع (وهذه إشـارة إلى مبدأ أن سائر كمالات الوسائط، هي فرع من كمالات الحق تعالى). وعلى أسـاس ما قلنا، يتوضح معنى الآية ﴿ **ثم تـردون إلى عالم الغيب والشهـادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[4].

أما الأمر الثاني: فهو أن الآيات السالفـة الذكـر، تفيد بـأن الحياة، حقيقـة جـارية في تمـام الموجـودات، لأنه بغيـر ذلك، لا يمكن إطـلاق اسم «الشهادة» على إنطاق الأعضاء والجوارح. لأن الحديث عن شيء يعتبر شهادة فيما لو صدر عن المتحـدث بشكل حقيقي، وهـذا لا يتم إلا بتمتع المتحـدث بالحيـاة. ومن جانب آخر، فإن الأحياء الذين يدلون يوم القيامة بـالشهادة على حـوادث وأعمال وقعت في الحيـاة الدنيـا، لا يمكن أن يدلـوا بالشهـادة، إلا أن يكونـوا يتمتعـون بالحياة أيضاً عند وقوع تلك الأعمال، بحيث يتمكنون من إدراكها، إذن فكـل ما يشهد يوم القيامة، لا بـد وأن يكون حياً في الدنيـا. ويستوي في ذلـك السمع،

---

(١) سبأ: ٣.

(٢) الزخرف: ٨٠.

(٣) ق: ١٦، ١٧.

(٤) الجمعة: ٨.

والبصر، والزمان، والمكان. وهكذا يمكن، مما تقدم، أن ندرك معنى الآية الكريمة: ﴿ **ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾[1] وكذلك الآية التي تصف آلهة الكفار: ﴿ **أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾[2].

وهناك الكثير من الأحاديث والأخبار والروايات حول المفاهيم الآنفة الذكر، ففي «الكافي» ورد عن الإمام الباقر (ع) أن الأعضاء والجوارح، تشهد على مستحقي العذاب الإلهي فقط (ولا تشهد على المؤمنين)، أما المؤمن فإنه يتلقى كتابه بيمينه. وهذه إشارة من الإمام (ع) إلى الآية الواردة بعد آيات الشهادة:

﴿ **وقيضنا قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحقَّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾[3].

وفي تفسير «القمي» و«من لا يحضره الفقيه» ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حول تفسير آية ﴿ **شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم** ﴾[4] قوله أن المقصود بـ «جلود»، هي الفروج والأفخاذ. وفي تفسير القمي ورد عن الإمام الصادق (ع) أنه عندما يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة، يعطي كل إنسان صحيفة أعماله، فيطلعون عليها، وينكرون ما فيها من أعمال ارتكبوها. بعد ذلك تشهد عليهم الملائكة، فيقسم العاصون بأنهم لم يرتكبوا أياً من هذه الأعمال: ﴿ **يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم** ﴾[5]، وعندها يختم الله على أفواههم فتشهد أعضاؤهم وجوارحهم على ما ارتكبوا.

---

(١) الأحقاف: ٥، ٦.

(٢) النحل: ٢١.

(٣) فصلت: ٢٥.

(٤) فصلت: ٢٠.

(٥) المجادلة: ١٨.

ومن الشهداء أيضاً، الزمان والمكان، وهما الأيام المقدسة والأشهر الشريفة، والأعياد وأيام الجمعة والمناطق المقدسة والمساجد وغيرها. يقول الله تعالى: ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين** ﴾[1].

إن المباحث السابقة تبين لنا كيفية شهادة الأيام، وكذلك توضح معنى الآية الكريمة السالفة الذكر. كما يتبين لنا أن كلمة «من» في عبارة «ويتخذ منكم شهداء» هي «من» ابتدائية وليست تبعيضية، و«الشهداء» في هذه الآية، هي الأيام.

وعن شهادة الأماكن والأزمنة أيضاً يقول الله تعالى: ﴿ **ثم إلي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير** ﴾[2]، وقد أسلفنا الحديث عن المعاني التي تتضمنها هذه الآية، وكيف تشهد الصخور والسموات والأرض.

كما يقول تبارك وتعالى: ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحىٰ لها** ﴾[3].

وفي «الكافي» ورد عن الإمام الصادق (ع) أنه عندما يحل النهار، فإنه ـ أي النهار ـ يقول للإنسان: يا ابن آدم ـ أعمل خيراً لأشهد لك أمام الله يوم القيامة، فأنا لم آتك من قبل، ولن آتيك بعد اليوم. وعندما يحل الليل، فانه ـ أي الليل ـ يخاطب الإنسان بنفس الخطاب. وقد نقل مضمون هذا الحديث ابن طاووس في كتابه «محاسبة النفس» عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام.

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) لقمان: ١٥، ١٦.

(٣) الزلزلة: ٢ ـ ٥.

وفي «علل الشرائع» ينقل الشيخ الصدوق قولاً عن الإمام الصادق (ع) رداً على سؤال حول إقامة النوافل في مكان واحد، أم توزيعها على أماكن عدة. فيجيب الإمام بأن الأفضل توزيعها على عدة أماكن لأن هذه الأماكن ستشهد له عند الله يوم القيامة.

ومن الشهداء أيضاً، القرآن الكريم، وكذلك الأعمال والعبادات الشخصية.

إن كل ما قلناه عن شهادة الشهداء (الشهود) يمكن إثباته بالبرهان، ذلك أن كل علاقة تتولد بين الأشياء والأعمال، سيتولد مثلها بين الشيء وذات الفاعل. لأن وجود الأعمال قائم بذواتها. إذن فبقاء الذات، سيبقى ما يصدر عنها. وببقاء ما يصدر عنها، ستدوم العلاقة المتولدة بينها وبين الأشياء. وببقاء هذه العلاقة، ستبقى الأشياء أيضاً، لأن العلاقة، وجود رابط، لا يتحقق إلا بوجود طرفين.

من جانب آخر، فإنه بالحياة ستحيا جميع الذوات (الأعمال والعلاقات والأشياء). وبحضورها أمام الله تعالى، بشكل كامل وبتمام الذوات، ستشهد بكل ما لديها.